استلهام التراث
فى شعر عامر بحيري
« دراسة موضوعية فنية »

للدكتـــــوره
عبير عبدالصادق محمد
مدرس الأدب والنقد
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات
بالإسكندرية – جامعة الأزهر

مقدمة

شغل التراث الإسلامي والعربي مساحة واسعة من التاريخ الإنساني، واستطاع الدارس بعامة والشاعر الحديث بخاصة أن يجد فيه أمدادا رحبة ومواد قيمة يستطيع أن يتعامل معها، ويغني بها فنه .

ومن أجل ذلك كان أي شاعر مهما بدا مجددا لا يستطيع أن يبدأ ما لم يسند ظهره إلى جدار راسخ من التراث، ومن ثم ينطلق من غير أن يقتلع جذوره . ومن هذا الموقع يبزغ الأديب المبدع الذي يعمق ما اختزنه من موروث ويسبغ عليه ظلالا خاصة هي حدود شخصية الأديب (١).

ولا ينفي هذا حرية الشاعر في الاختيار والتسجيل والنظم فالتعامل مع التراث ينطلق من واقع الشاعر المعاصر، بمعني أنه يبحث في الماضي عما يتناسب مع كيفية رؤيته وتعامله مع هذا الحاضر .

وقد وظف شعراء كثيرون التراث بكل أنواعه وعلى نطاق واسع على أن توظيف التراث في الشعر لا يمثل موقفاً شعرياً جمالياً فحسب بل يمثل موقفاً فكرياً عملياً، ومن هنا أصبحت معايشة التراث ضرورة حيوية لا يستغني عنها الواقع الوجودي للإنسان، فهو يستمد من ماضية ما يستطيع أن يواصل به حاضره ومستقبله .

ومن هنا يجب أن تكون صلة الشاعر بالتراث ممتدة إلى ينابيعه الأولى، وهي ليست صلة اعتناقية بمعنى أن يأخذ الشاعر التراثي قضية مسلما بها، لكنها قضية تثير من الجدل أكثر مما تثير من التسليم .

وهذا ما رآه شاعرنا عامر محمد بحيرى في تعامله مع التراث الإسلامي والعربي، فقد أقر بأنه يجب أن يكون التعامل معه جوهرياً حقيقياً بحيث لا يصبح التراث مجرد مظهر أو لافتة يقف تحتها الشاعر، ولا يقصد بهذا التعامل مجرد إعادة بعث التراث الذي يستلهمه الواقع، ولا يقصد بهذا التعامل مجرد إعادة بعث التراث الذي يستلهمه الواقع، ولكن يعني في المقام الأول القيم التي عبر عنها هذا التراث، حتى لو كانت غير مقصودة .

(١) انظر / التراث الإنساني في شعر أمل دنقل / د / جابر قميحة/ ١٩.

تمهيد

نبذه عن الشاعر:ـ

من شعراء مدرسة أبولو، نظم الشعر في أربعة وخمسين عاما كما ذكر ذلك في مقدمة ديوانه قائلاً:

" يشتمل هذا الديوان الكبير على خلاصة منتخبة من خمسة عشر ديوانا، تمثل مراحل حياتي المختلفة مع الشعر، على مدي أربعة وخمسين عاماً (١٩٢٧ – ١٩٨١م) . وقد صدر منها بالفعل اليخت الذهبي (١٩٣٦م)، وعلى ربي الإلهام (١٩٤٨م)، وثورة الشعر، تحت لواء العروبة (١٩٦٠م)، وقصائد أفريقية (١٩٦٢م) أما بقية الدواوين فظلت مخطوطة تنتظر أوان نشرها . ومنها: على شاطئ الحياة (١٩٣٠م)، في عالم الملائكة (١٩٣٩م)، عطر وبارود (١٩٤٣م) ؛ أزهار السلام (١٩٦٨م)، الأزهار الجديدة (١٩٧١م)، في طريق العودة (١٩٧٣م)، مع مبادرة السلام (١٩٧٧م)، شاطئ النهاية (١٩٧٩م)، في رياض النبوة (١٩٨١م) " [(١)].

وكما تمثل هذه الدواوين حياة عامر بحيرى الوطنية، والاجتماعية، والوجدانية، بما فيها من مشاركة واضحة في الأحداث، فإنها تمثل كذلك التطور الشعري، بين التجديد والمحافظة، فهو يحافظ على عمود الشعر محافظته على الأصالة، أما المعاصرة فتتمثل عنده في المعاني والأفكار والأخيلة وقد بدأ رحلته مع الشعر متأثراً بتجديد شوقي، وتجديد العقاد، وتجديد أبي شادي وشعراء أبوللو .

ونظم الشعر الوطني والإسلامي والاجتماعي والذاتي والإنساني والملحمي والتمثيلي .

وأخذ ينظم الشعر العاطفي الرومانسي، ويلتقي بالشعراء المجددين في رحاب جماعة أبوللو، وكانت معظم مطالعاته آنذاك في الثلاثينات في الأدب

(١) انظر / مقدمة ديوان عامر / عامر محمد بحيري / ط / الهيئة المصرية العامة للكتاب /١٩٨٢م .

العربي والإنجليزي، ولاسيما في الشعر، مواكباً لتلك الحركة الرومانسية، التي جمعت بين القديم والجديد، وبين الأصالة والمعاصرة، وبين المحافظة والتجديد[1].

كما ترجم لشكسبير على المدى الطويل نحواً من عشر مسرحيات شعراً، صدرت منها ثلاث هي . مكبث (١٩٦٦م) والعاصفة، وتاجر البندقية (١٩٧٩م)، كما ترجم مطولات ومقطوعات من الشعر الإنجليزي، الكلاسيكي والرومانسي على حد سواء .

وله مسرحيات شعرية وملاحم شعرية فمن مسرحيات الشعرية: خالد بن الوليد (١٩٤٥م)، والأمين والمأمون (١٩٥٧) والتي نال بها جائزة التأليف المسرحي .، في سبيل الوطن (عن معركة رشيد) .

ومن ملاحمه الشعرية:-

أمير الأنبياء (١٩٥٤م)، وإيزيس وأوزوريس (١٩٦٠م) وهداة البشرية، والطريق إلى النور، والجلاء (١٩٦٣م) ومصر المنتصرة (١٩٧٦م) .

وللبحيري أيضا روائع الكنز الذهبي: وهي قصائد مترجمة من كتاب The Gold entreosury في عشرة فصول .

– والصدحات وهو لون آخر من ألوان التجديد جعله على نسق " السونيت" في الأدب الإنجليزي، لكنه أطلق عليه اسم " الصدحات " تقريباً لجرس الكلمة الإفرنجية من الأذن العربية .

– ومدائح الموتى . ويشتمل على مراثي الأدباء والعلماء الخ .

– في رياض النبوة . ويشتمل الروحيات والنبويات والإسلاميات الخ .

ويبتكر عامر بحيرى وزنا في البحر الخماسي من الشعر الجديد في بحر الرمل ويكتب عليه قصيدته " مناجاة "[2] التي يقول في مطلعها:

أَين أَنت الآن .. يا من سكبت خمر غرامي .. أَين أَنت ؟
في سماء النور قد صعدت .. أم في وطن الحور سكنت ؟
وقريبٌ أم بعيدٌ .. أن تعودي من فؤادي حيث كنت ؟

(١) راجع / الأدب العربي الحديث / د/ محمد عبد المنعم خفاجي /٣/٣ وما بعدها.
(٢) ديوان عامر ٢٤٦/١ .

ومن محاولات التجديد التي ابتكرها الشاعر أن جمع في بعض قصائده بين خصائص القصيدة العمودية وموسيقاها وبين حرية الشاعر في التنقل بين التفاعيل في أبيات القصيدة .

وظهر هذا بوضوح في قصيدتيه " أفريقيون وعرب "[1] و" قريتي" [2]وقد كتب الشاعر قصيدته الأولى في أوائل عام ١٩٦١م، مشيراً إلى أمجاد القارة الأفريقية، وإلى أن معظم قادة أفريقيا هم من المسلمين ومن عجب أن أسماءهم جميعاً أسماء عربية .. وإن وقع فيها التحريفِ المقصود،لإعطائها صوراً جديدة لا تمت للأصل بسبب أوصلة . ومنها:

أيها العائد من غانا، ومالي ..
جائبِ الأوطانِ من غربٍ لشَرْقٍ ..أَوْ جنوب لشمال
هذه الأَرض لأبطالٍ حموها، ورجال
هذه الأَرض لعمّ .. ولخال ..
وجدود في عصور المجد، والفتح الخوالي
حرسوها بسيوفٍ و نصال ..

والقصيدة الثانية مثل الأولى محاولة لتطويع الشعر الجديد .. فهي منظومة في بحر مبتكر . يتكون فيه البيت من شطر واحد، يحتوي على خمس تفعيلات في بحر الكامل . وقد كتبها الشاعر عام ١٩٦١م، في دعوته للعدالة الاجتماعية ومنها:

في قريتي، وهي التي .. دفن الجدود بأَرضها الخضراء ..
وجرى مسيل الماء حول حدودها .. كالحية الرقطاء
في الجدول المنساب بين حقولها .. والترعةِ البيضاء
برزت إليّ الذكريات جميلة .. كالغادة الحسناء !

(١) ديوان عامر /١/٢٤٠ .
(٢) ديوان عامر /١/٢٤٣ .

ولا يقتصر تجديد عامر بحيري على ذلك فحسب، بل تراه في شعره يحافظ على الأصالة والفطرة الشعرية، والعاطفة الصادقة والطلاقة الفنية، والبعد عن الافتعال مع التناول الفني السليم للفكرة والمعنى والموضوع، والانسجام الموسيقي، واستعمال اللفظ الموحي .

وكذلك يحرص الشاعر على السهولة في التعبير، لفظاً ومعنى وخيالاً، مع تركيز الأسلوب، والرجوع إلى النفس والذات، وإيثار الشعر الغنائي العاطفي والركون إلى التأمل الصوفي، والغناء بالطبيعة الجميلة، والمحافظة على الوحدة العضوية في القصيدة، مع التجربة الشعرية العميقة، والعناية بالصورة الشعرية، وبالأخيلة الهائمة [1] .

❁❁❁

(١) راجع: الأدب العربي الحديث . د. محمد عبد المنعم خفاجي ٣/٥ .

الفصل الأول
بواعث استلهام التراث
فى شعر عامر بحيري

بواعث استلهام التراث في شعر عامر بحيري:ـ

هناك عدة بواعث وراء استلهام التراث في شعر عامر بحيرى انصهر فيها الشاعر بشعره، وربطها بقضاياه، بحيث يصعب الفصل بينها، ووضع حدود دقيقة لمنطقة تأثير كل منها، والجزم بالنقطة التي ينتهي عندها تأثير هذا العامل المعين ليبدأ تأثير باعث الآخر، كما أن هذه العوامل ذاتها تتبادل فيما بينها التأثير والتأثر بحيث قد يقوِّى عامل معين تأثير عامل آخر أو يضعفه[1]، إذن فمحاولات تصنيف هذه البواعث وتحديدها محاولة اجتهادية .

ومن الممكن أن نصنف بواعث اتجاه شاعرنا إلى ظاهرة استلهام التراث إلى عدة بواعث:

١ـ باعث ثقافي:ـ

يؤمن عامر بحيرى بأن الشاعر الموهوب لابد أن يرتكز على أسس من العلم والثقافة تعين موهبته الشعرية لكي يبدع شعراً له وزنه من منظور عصره " فمن مميزات الشاعر العصري أنه في حاجة لأن يحصل أكبر قدر مستطاع من الثقافة فالثقافة هي سلاحه الحقيقي والضروري، والتنوع في هذه الثقافة ضرورة كذلك يفرضها عصرنا، فلم يعد يكفي الشاعر المثقف أن يلم بالشعر العربي وحده، أو بالثقافة العربية وحدها، وإنما هو يحس بضرورة أن تمتد ثقافته فتشمل كل ما يمكن أن يوسع عن نظرته إلى الأشياء ويعمقها، ولهذا فإنه يفتح نفسه للتراث الإنساني كله قديمه ووسيطه وحديثه، شرقيه وغربيه دون مفاضلة أو تميز[2] .

---

(١) انظر: استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر./ د. علي عشري زايد، ط: دار غريب / ٢٠٠٦ م ١٥ .

(٢) راجع: الشعر العربي المعاصر/ قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية،/ د. عز الدين إسماعيل/ ط/ دار الكتاب العربي / ١٩٦٧م / ٣٨ .

يقول عامر بحيري في قصيدته " محطم الأصنام " (١):

وأديــن بالتجديــد حــراً راشــداً فيمــا أَديــن بــه . . ملكــتُ زمــامي
وأحـارب التقليـد مـا لـم يقْتَـرنْ بـــالفكر للفصـــحاءِ و الأعجـــام

ويقول في قصيدته " العروبة " (٢):

وبحثت عن خير الدواء فلم أَجد غيــر الثقافــة والبيــان الراقــي !

وكان هناك عاملين لهما دور أساسي في الدافع الثقافي عند عامر بحيرى :-

أولهمـا: تأثير حركة إحياء التراث ، والدور الذى قام به رواد هذه الحركة في كشف كنوز التراث وتجليتها، وتوجيه الأنظار إلى ما فيها من قيم فكرية وروحية وفنية صالحة للبقاء والاستمرار .

مما كان له أكبر الأثر في شعر شاعرنا ؛ إذ ارتد إليه يستلهمه ويستر فده .

ثانيهما: الارتباط بالموروث في الآداب الأوربية:

ويعتبر هذا العامل مكملا للعامل الأول وداعماً له، على الرغم مما قد يبدو بينهما من تعارض ظاهري، خصوصاً عند من يعتبرون أن الارتباط بالتراث معناه التقوقع عليه، وإغلاق الباب في وجه أية تيارات ثقافية وافدة، حتى لو كانت مما يدعم هذا الارتباط بالتراث، ويرشد إلى أقوم السبل التي تقود إلى الاحتفاظ لهذا التراث بحياة متجددة أبداً .

ويعتبر الناقد والشاعر الإنجليزي ت . س إليوت من أوائل من وضعوا الأسس لهذه الدعوة فهو يرى " أن الحاضر ينبغي أن يغير الماضي بمقدار ما يوجه الماضي الحاضر. " وأنه " ليس لشاعر أو فنان في أي نوع من الفنون قيمته الكاملة في نفسه، وإنما تترتب قيمته على أساس علاقته بالسلف من الشعراء والفنانين " (٣) .

وقد وضع هذه الأسس في مقالته الشهيرة " الاتباعية والموهبة الفردية " . ولا غرو أن كان "إليوت" من أكثر الشعراء الغربيين تأثيراً في شعرائنا المعاصرين، وخاصة في دعوته إلى الارتباط بالموروث، وكان عامر بحيرى واحداً من شعراء

(١) ديوان عامر ١/ ١٢٤ .
(٢) ديوان عامر: ١/١٨٥ .
(٣) راجع: استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر / ٢٧ .

العربيـة المحـدثين الـذين تتبعـوا " إليـوت فـي اسـترفاده للتـراث الشـعري الأوربـي، ويظهر هذا في قصائده المترجمة لـ:

جون لِـلي[١] : ١٥٥٤ – ١٦٠٦م كيوبيد وكامبسبي [٢].

وليم شكسبير [٣]: ١٥٦٤ – ١٦١٦م الجزيـرة _ أنشـودة الغـرام _ الرحمـة _ ضـوء القمـر _ جولييـت _ أصـدقاء كـاذبون _ الوقـت والسـاعة _ مناجـاة _ هملت _ زورق كليو بترة .

جون ملتون(٤): ١٦٠٨ – ١٦٧٢ لسيداس[٥].

وليم كوبر [٦]: ١٧٣١ – ١٨٠٠ البطولة [٧].

وليم ورد زورث[٨]: ١٧٧٠ – ١٨٥٠ لمحـات الخلـود مـن ذكريـات الطفولـة الأولى – النرجس المائي–قوس قزح .

برسي بيش شلي[٩]: ١٧٩٢ – ١٨٢٢م إلـى قبـره[١٠] – الـزمن فلسـفة الحـب – إلى القمر .

جون كيتس[١١]: ١٧٩٥ – ١٨٢١م إلى عندليب – البحر – فصول العمر.

ألفرد لورد تنيسون[١٢]:١٨٠٩– ١٨٩٢م الزهرة – النسر .

---

(١) الديوان / ٣٢٥/٢ .

(٢) كامبسب compospe هي عشيقة الأسكندر الأكبر .

(٣) الديوان / ٣٢٦/٢ .

(٤) الديوان /٣٢٩/٢ .

(٥) لسيداس اسم اطلقه الشاعر على صديقه طالب الجامعة . الذي لقى حتفه غرقاً . وتعد هذه القصيدة من أروع مراثي الشعر العالمي في مثل موضوعها .

(٦) الديوان / ٣٣٣/٢ .

(٧) هـذه القصـيدة أول مـا نظـم الشـاعر مـن القصـائد المترجمـة، وقـد نشـرت بصـحيفة السياسـة الأسبوعية عام ١٩٣٣م .

(٨) الديوان / ٣٣٧/٢ .

(٩) الديوان / ٢/ ٣٤١ .

(١٠) تحتفظ هذه الترجمة بنفس نظام العروض والقوافي للقصيدة الأصل، كما تضم قدراً عالياً من الموسيقة التي تتميز بها .

(١١) الديوان / ٣٥٠/٢ .

(١٢) الديوان / ٣٥٤/٢ .

" ويذكر بحيري أن ما أفاده في مواصلة الترجمة الشعرية التي بدأها في عهد الشباب هو أنه عالجها على الطريقة الشوقية، التي صاحب ظهورها اتصال بحيرى بشكسبير . وقد أضاف أشياء هامة إلى اتجاه شوقي وعزيز أباظة . الذي عنى بالأسلوب العربي الجزل الرصين فحاول بحيرى في مقابلة ذلك الاتجاه إلى الأسلوب السهل البسيط، كما أنه مازج بين الشعر والنثر، كما فعل شكسبير تبعاً لمقتضى الحال – وهذا ليس واردا عند شوقي وعزيز مطلقاً، ولجأ بحيرى إلى بعض الألفاظ التي قد يرى القارئ والسامع لأول وهلة أنها دارجة مع أنها في المعجم عربية فصيحة، وهناك شئ هام جداً لعله فات الأكثرين من مترجمي شكسبير إلى العربية، وهو هذه النكت البلاغية، والمحسنات اللفظية الكثيرة،واللمحات الذكية المقصودة التي عنى بها بحيرى، كما أنه ابتعد كذلك عن البحور الشعرية الكاملة، ما وسعه الابتعاد عنها، ولجأ إلى البحور المجزوءة، وخصوصاً مجزوءات الرجز، والرمل، والكامل وغيرها، وغير القافية غالبا كل بيتين، أو عند كل وقفة ينتهي إليها معنى، أو عند الانتقال من فقرة إلى فقرة، وفي بعض المواضع اكتفى بشطر واحد، أو تفعيلة واحدة، مما أتاح له فريداً من الحرية والواقعية المبنيتين على فهم صحيح، وتقدير سليم . . الخ [1].

٢- باعث قومي:-

واجهت الأمة الإسلامية صراعات كثيرة في العصر الحديث بين شعوبها والمستعمر بشتى أنواعه وصوره الذي لا تنتهي مطامعه، والذي سار في سبيل تحقيقها وفق خطط مدروسة، تختلف في ظاهرها ولكنها تتفق في هدف واحد، " وتسير في طريقين بارزين يوصلان إلى هذا الهدف، أما الطريق الأول: فهو السعي إلى إزالة الفواصل الناشئة عن اختلاف القيم بين المسلمين والغرب أو تقليلها وتقريب الصلات، وأما الطريق الثاني: فهو توهين الرابطة الدينية التي تربط بين المسلمين وتقيم جماعاتهم، حتى يستطيع المستعمر أن يتعامل مع كل

(١) مقال " عامر بحيرى يترجم مسرحيات شكسبير كاملة " لـ د . عبد العزيز شرف / الأهرام / ١٩٧٩/٨/٣م .

دولة على حدة "[1] يقول عامر بحيرى في قصيدته " نهج البردة"[2] مشيراً إلى نقصان الإسلام في أرضه وتأخره بين أهله ويرجع سبب ذلك إلى الإنشعاب بين الشعوب الإسلامية:

ديـن السـلام بأَيـدي المسـلمين بعـد الزيـادة فـى نقـص وفـى تَبَـب[3]
بالأمس كانت لهم ذُخرا فضائله واليـوم أبـدوالها إعـراض مجتنـبِ

قـالوا تـأخر هـذا الشـعب قلـت الخيـر فـي أن نـراه غيـر منشـعبِ
يجانـب الباطـل المـرذول منطقـه ويطلـب الحـق فـي جـدَّ وفـي دأبِ

" وحين تتعرض أمة من الأمم لخطر داهم يهدد كيانها القومي فإنها لا تلبث أن ترتد تلقائيا بحركة رد الفعل إلى جذورها القومية، تتشبث بها في استماتة لتؤكد كيانها في وجه هذا الخطر الداهم، والتراث واحد من تلك الجذور القومية التي ترتكز عليها كل أمة في مواجهة أية رياح تحاول أن تعصف بوجودها القومي، فتمنحها إحساسا قويا بشخصيتها القومية، ويقيناً راسخا بأصالتها وعراقتها . " [4]

ومن الممكن أن نقسم تعرض الأمة العربية والإسلامية إلى خطر يهدد كيانها القومي إلى مرحلتين:

الأولى: مع بداية الاحتلال الإنجليزي لمصر في أواخر القرن الماضي، وتزايد المطامع الأوربية في البلاد العربية " وكان للإنجليز من وراء كل ذلك هدف واحد، هو إضعاف العصبية الدينية وتقطيع أوصال المسلمين في مستعمراتهم حتى يستطيعوا أن يواجهوهم واحداً واحداً."[5] تبعاً لسياستهم المعهودة " فرق تسد "

(١) الإسلام في الأدب العربي المعاصر / د/ إبراهيم عوضين / ط / مطبعة السعادة /١٤٠٨هـ – ١٩٨٧م /٩٧ .
(٢) الديوان /١/٤٧٤ .
(٣) التبب: النقص والخسارة .
(٤) استدعاء الشخصيات التراثية /٣٩ .
(٥) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر /د/ محمد محمد حسين /ط مؤسسة الرسالة / ط / ١٩٨٣م / ١/١١١ .

وكان الأدب المعتمد على التراث – شعره ونثره – من أقوى الأدوات في استنهاض الهمم، وبعث الأمل، ومحاربة اليأس، ورد الثقة إلى نفوس تمكن منها سوء الظن بنفسها حتى قتل فيها روح الأمل والطموح .

والأدباء والعلماء في كل أمة هم وجدان الأمة وضميرها وعقلها، فلم يكن غريبا أن يكونوا هم الذين نهضوا بعبء إحياء هذا التراث فاستمدت منه الأمة إحساساً قويا بشخصيتها وكيانها، ويقينا راسخا بأصالتها وعراقتها وجدارتها بالبقاء، وكانت حركة الإحياء على يد البارودي هي بداية اليقظة الفكرية .

على أن محاولة تمزيق شمل الأمة العربية والقضاء على شخصيتها لم تنته باحتلال مصر وأجزاء أخرى كثيرة من الوطن العربي وإنما بدأت منذ ذلك التاريخ، وبدأ معها صراع ضار على كل مستوى بين الأمة العربية التي تحاول أن تؤكد شخصيتها في مواجهة هذا الاستعمار، وبين القوى الاستعمارية التي كانت تحاول جاهدة أن تقضي على هذه الشخصية القومية وتمحوها [1]. وفي ظل المرحلة عاش شاعرنا عامر بحيرى وحاول أن يشحذ عزيمة هذه الأمة عن طريق تذكيرها بأمجادها القديمة العريقة، وتذكيرها بالنماذج المشرقة الباهرة في تاريخها العظيم " ولم تنفصل حركة إحياء التراث عن حركة اليقظة القومية، وإنما كانت عنصراً أساسيا في برنامجها وموقعا من مواقع النضال في الميدان العام الذي تقاسمه الرواد فيما بينهم " [2].

المرحلة الثانية: ارتبطت بكارثة قومية أخرى طعنت الإحساس العربي القومي في قلبه وهي تعرض فلسطين للاحتلال الصهيوني الإسرائيلي – بدعم وتأييد من القومي الاستعمارية الكبرى – " ومن أعجب الأعاجيب أن اليهود لم يكتفوا بمطامعهم في فلسطين بل راحوا يحلمون بإمبراطورية كبري تمتد من الفرات إلى النيل وتشمل فيما تشمل جزءاً من الأراضي الحجازية المقدسة بالمدينة المنورة وما حولها !! " [3] .

يقول عامر بحيرى معبراً عن هذه النكبات في ملحمته " مصر المنتصرة ":

---

(١) انظر / استدعاء الشخصيات التراثية /٤٠ .

(٢) تراثنا بين ماضى وحاضر / ط / دار المعارف / ١٩٧٠م /٥٧ .

(٣) العامل الدينى فى الشعر المصري الحديث من ثورة ١٩١٩ إلى ثورة ١٩٥٢/١٦٩.

كـم بمصـرٍ نـزل المسـتعمرون جـاء بونابرت..حينـاً ..وَرحَـل[1]
ثـم جـاء الـدخلاء المعتـدون ومضـوا فـي ثـوب خـزي وخجـل
فلمـاذا جـاء قـومٌ آخـرون مـالهم فـي مضـرب الـذّل ..مَثَـلْ
حزب صهيون .. لماذا أقبلوا ؟ مـا هـو الماضـي ؟ ومـا المسـتقبل

٣ – باعث سياسي: ▪

مرت الأمة العربية في العصر الحديث – في مختلف الأوطان – بظروف سياسية كممت الأفواه، ووئدت الحريات، وقصفت الأقلام، وفرضت على أصحاب الرأي ستاراً من الصمت الثقيل الفادح كانت أية محاولة لتجاوزه تكلف صاحبها حياته أو في أفضل الظروف تكبده ألوانا من الأذى والنكال والعذاب ؛ لذا كان التراث هو ضالة الشعراء فهو معين لا ينضب يمدهم بالأصوات التي تحمل كل نبرات النقد والإدانة لقوى الطغيان، وبالأقنعة التي يتوارون خلفها ليمارسوا مقاومتهم للطغيان والبطش .

وقد دارت معارك كثيرة على أرض الإسلام، ولا زالت تدور بين المسلمين وأعدائهم، ولم تنته كل المعارك بانتصار العرب والمسلمين، فقد انتصروا في بعضها وأخفقوا في بعضها منذ عهد أحمس وثورة عرابي، وما تلاها من أحداث ثورة ١٩١٩م، إلى أن قامت ثورة يوليو ١٩٥٢م . ثم توالت النكبات والنكسات، فكانت نكبة مصر والأمة العربية بالعدوان الثلاثي سنة ١٩٥٦م، ثم كانت الصدمة النفسية العاتية سنة ١٩٦١م بانفكاك الوحدة بين مصر وسوريا بعد أن عقدت الأمة العربية أملاً قوياً على هذه الوحدة كخطوة أولى للوحدة السياسية الكبرى، بحيث تبدو البلاد العربية كلها أمة واحدة في مواجهة أعدائها .. وتخليص فلسطين من الاستعمار الاستيطاني . ثم كانت النكسة الخطيرة سنة ١٩٦٧م بانكسار الجيش المصري واحتلال إسرائيل أجزاء لا من البقية الباقية من أرض فلسطين فحسب، ولكن من أرض سوريا ومصر، فاحتلت هضبة الجولان كما احتلت جزيرة سيناء والضفة الشرقية من قناة السويس كلها .. بحيث أصبحت مدن القناة الثلاثة على مرمى السهام الإسرائيلية .

(١) الديوان / ٣٠٧/٢ .

وساد شعور مزيجاً بالإحباط واليأس والحزن والتمزق واليأس والنقمة والتمرد منذ هذه الفترة إلى السبعينات وانتصار اكتوبر .

وأمام كل هذه النكبات كان التراث في صوره الزاهية وأمجاده المنتصرة هو ضالة الشعراء ومنهم شاعرنا عامر بحيرى . ومن هنا راح شعره ينقل إلى سمع الدنيا صوت النضال الحر، الذي يجيش به قلب كل مصري، وكل عربي، بل كل مسلم، مستلهماً ألحانه من قصص الكفاح والفدائية، التي فاقت حد الأساطير، من الشباب في فتكهم بالأعداء وزودهم عن حياض البلاد [1] .

ولم يكن الهروع إلى التراث لمجرد المعايشة النفسية لعالم ذهبي بهدف جلب الأمل والتفاؤل للشاعر، ولكن لهدف أبعد وأسمى وهو استنهاض الهمم وبعث القيم التاريخية المنتصرة التي حققت للحضارة العربية والإسلامية مكانة عليا في المجتمع الإنساني .

ونجح بحيرى في كثير من قصائده على الربط بين حاضرنا وتراثنا الخالد .

وبائية الشاعر عامر بحيرى التي أطلق عليها " نهج البردة " [2]، ونظمها في المدح النبوي خير شاهد على مدى تعلق الشاعر بتراثه، ومدى تأثير تراثه في شعره .

ولم يبدأها بالنسيب كالبوصيري والبارودي وشوقي، بل كان مطلعها في ثلاثة وعشرين بيتاً، يصور الشاعر فيها مناجاته وأشواقه وحبه الواله للنبي محمد– ﷺ – حين استقبل المدينة المنورة، والمسجد النبوي الشريف، كما تمنى على الله ﷻ أن يشرف بصحبة الرسول – ﷺ – في الدنيا والآخرة كما شرف بهذه الصفة أصحابه – رضي الله عنهم – فيتناجى بهذا الشوق الحار، والحب الصادق فيقول:

لاحتْ لَكَ القُبةُ الخضراءُ فاقتربْ ... وَجُدْ بدَمْعٍ على الخدين مُنْسَرِبِ

وأذكر عهوداً بهذا الحي قد سلفت ... بلغتَ فيهن ما أمَّلْتَ من رَغَبِ

تَسعى إليه إذْ الأيامُ غافلةٌ ... إلاعيون الهوى يَشْهدْنَ عن كثب

هو الحبيبُ الذي شارفتُ منزله ... أجوزُ في الوَهْدِ،أوأسموإلى

---

(١) انظر / الشعرفي المعركة / محمود حسن إسماعيل / ط / دار المعارف ١٩٥٧م / ١٦ .

(٢) ديوان عامر / ٤٦٧/١ وما بعدها .

وهكذا حتى ينتقل إلى صفاته الجسدية كما وردت في الأثر الشريف فقد بلغت الغاية في جمال الحسب والنسب وصفات الجسد، كما بلغت الغاية في أخلاقه السامية فيقول:

محمدُ صفوةُ الدنيا وبَهْجَتُها   وأَشرف الخلق في علم وفي نسبِ
أَلقى الجمال عليه من مهابته   فأيُّ قلبٍ من رُؤْياهِ لم يجبِ؟[1]
أخلاقه المثلُ العليا لأُمته   لما احتذوه فكانوا أَنجب النُّجبِ

ويشير الشاعر في بيته الأخير إلى أهمية الأقتداء بأخلاق المصطفى – ﷺ – والسير على هديه ومنهجه والاحتذاء بصفاته الكريمة حتى تصح الأمة من بعده وتستقيم .

ويستمر في تصوير صفاته الجسدية، لينتقل بعد ذلك إلى وصف أخلاَقه السامية من خلال أسمائه " محمد،.الماح، العاقب، الشفيع .. الخ . ويمضي في تصويرها تصويراً أخلاقياً سامياً لينتقل إلى خلقه العظيم كما وصفه ربه سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيم﴾[2] من الهدى، والشجاعة والعدل والكرم والجود والحلم والعلم والفصاحة ... الخ .

محمدٌ .. غيرُ مسبوقٍ بمحمدةٍ   ولا بمكرمُة في اسم ولا لَقَبِ
ماحٍ مَحَا الكفْرَ ربُّ العالمين به   وعاقبٌ ماله في الرسل من عقبَ
وحاشر يحشر الله العباد على   أقدامه في جلال الموقف الحزبِ
وهو الشفيع لهم في الحشر إن   أعاظم الرسل للجُلَّى فلم تُجبِ
هذا نبيُّ الهدى أَدَّى رسالته   إلى العباد وأَلقى أَبلغ الخطب

ثم ينتقل إلى معجزاته الكثيرة واحدة بعد الأخرى، ويقف وقفة طويلة مع المعجزة الكبرى، وهي " القرآن الكريم " في ثمانية عشر بيتاً منها قوله:

محمدُ .. الصادقُ الأميُ .. نَغْمه   وحي السماء بمنهل ومنسكبِ

(١) وجب القلب – يجب وجبيا – خفق .

(٢) الآية رقم (٤) من سورة القلم .

يغشى حراء فيغشاهُ به مَلَكُ يُلقى عليه الهُدى في ثوبه القُشبِ
مسطراً في قديم اللوحِ أنزله منجَّماً جاء عن علمٍ وعن طلبِ

ثم انتقل إلى انتشار الإسلام بعد فتح مكة وانتصار حنين ليحض المسلمين في العصر الحديث على أن يحافظوا على هذا النصر، ويدافعوا عن الإسلام ويكونوا أوفياء في حمل هذه الأمانة، وهنا يأتي دور توظيف التراث، وخاصة بعد أن تعددت الجبهات والتيارات من الملاحدة والصليبيين والمشركين وغيرهم، ممن جمعتهم عدواتهم للإسلام وحقدهم عليه وعلى المسلمين الذين تفرقوا شيعاً وأحزاباً، وانصرفوا إلى اللهو والعبث لا إلى بناء أمجاد الأمة الإسلامية، والحفاظ على عزتها وكرامتها كما كانت[1] .

حصن النبوة يأتي العالمون له مِن الجهات وأَنتم منه في العتبِ
هذا هو الشرف الباقى فلا سبب أقوى لمتَّصل من ذلك السبب
.....
والعصر مندفعٌ فى غيه نزق بين الجنون وبين اللهو والصخب
حرب صليبية أخرى قد اندلعت باتت خديعتها أدهى من الصُّلُب
فالملحدون وأهل الشرك في والمسلمون وأهل الصدق في لعبِ

ويختم قصيدته بمناجاة للرسول ﷺ واستغاثة به مما حل بالمسلمين من بلاء، وما أصابهم من وهن وضعف وتمزق وإقبال على المجون والعبث وانصراف عن الجد والعمل، فيحث المسلمين على الاقتداء بالرسول ﷺ في أخلاقه وصفاته، وجهاده والدفاع عن الإسلام والعمل بشريعته والحفاظ على هذه الأمانة، وعلى حضارة الإسلام ؛ ليؤدوا دورهم في بنائها وسموها، كما أدي ذلك السلف الصالح في عزة وإباء وكرامة، ومجد وسؤدد . يقول:

لبيك لبيك ..يا من بتُّ أَسمعه مناديـــاً، وأراه غيـــر محتجـــبِ!
دعوت قومك في أقصي البلاد يحمى حضارتهم فيها من العطبِ
فلا يجارون عن جهلٍ ذوى سفهٍ ولا يدينون مـن ضـعيفٍ لمغتصـبٍ

(١) راجع /الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق / د. علي علي صبح ط / ١٩٩٨م /٣/٤٠ وما بعدها .

إذن فلم يكن لجوء الشاعر عامر بحيرى إلى استلهام التراث لجؤا عفوياً، بل كان وراءه العديد من الأسباب والدوافع، الثقافية ، والقومية ، والسياسية .

وبقي أن نقول إن الأديب الذي يفقد اتصاله بتاريخ قومه، وتراث أمته، لا يصلح بحال ما أن يعبر عن وجدانها المعاصر ؛ لأن فقدان وعيه لشخصيتها يجعله أجنبياً عنها، غريبا عليها . "[1]

❁❁❁

(١) قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر / د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) ط / دار المعارف / ١٩٧٠م /١٦٥ .

الفصل الثاني
مصادر استلهام التراث عند
عامر بحيري

وجد شاعرنا عامر بحيرى في التراث نبعاً ثرياً متنوع المصادر، فأقبل عليه بنهم ودأب، يمتاح من ينابيعه السخية أدوات يثري بها تجاربه الشعرية، ويمنحها أصالة وشمولاً وعراقة، كما أنه يوفر لها وسائل فنية غنية بالطاقات الإيحائية القادرة على تجسيد هذه التجارب وترجمتها ونقلها إلى المتلقي .

ويهدف هذا الجزء من البحث إلى دراسة تلك المصادر التراثية عند عامر بحيرى، محاولاً الربط بين تجارب الشاعر ومصادره، وما دفعه إلى استلهام كل منها:-

ومن الممكن أن نصنف مصادر التراث عند شاعرنا إلي:-

١ – القصص القرآني والسيرة النبوية .
٢ – رموز التاريخ الإسلامي وأعلامه .
٣ – رموز النضال القومي والوطني .

على أن هذه المصادر ليست دائماً منفصلة، بل بينها تداخل وترابط، مما لا يمكن تجاهله، فكثير من المواقف (التجارب) التاريخية، هي في الوقت نفسه تجارب إسلامية، وكثير من التجارب العربية، تجارب تاريخية، إذن فمصادر التجارب لها أكثر من مصدر، ولكن مع ذلك فإن لكل مصدر من هذه المصادر ملامحه وصفاته الخاصة التي تميزه عن بقية المصادر، وبقدر هذه الملامح والصفات يمكن تصنيفها في المصدر الذي يحدد ملامحها وصفاتها .

القصص القرآني والسيرة النبوية

أولاً:-

التراث الإسلامي تراث واسع الآفاق، خصيب الجوانب، تزخر صحائفه بمختلف ألوان النتاج، ويحفل تاريخه بصنوف العبقريات في الإدارة والحكم، وفي الأدب والتأليف، وفي الزهد والتصوف .

ولدينا تراثاً أدبياً هائلاً ينبض بقيم الخير والقوة والجمال في الإسلام، وهذا التراث لعب دوراً خلاقاً في تشكيل وجدان المسلم وسلوكه وفكره، ودورنا اليوم أن نواصل المسيرة مع تطوير أدواتنا، والحفاظ على مبادئنا الثابتة [1].

وعند استقرائي لشعر عامر بحيرى، وجدت مساحة كبيرة من العناصر التراثية الإسلامية تتضح بها أعماله في صور عديدة من التوظيف فقد عمد إلى الشخصيات الدينية والمواقف والأحداث ليتخذ منها محاور يسقط عليها أبعاد التجارب المعاصرة، وبخاصة فيما يتعلق بهموم الذات، وقضايا الوطن .

الشخصيات :-

اتخذ عامر بحيرى من شخصيات الأنبياء مرتكزا لتوجهاته الشعرية، فهي تمثل الرموز التي يجعلها رمزاً لمنجاة العالم، وتحرره من قيود العبودية والظلم، وهي الظلال الآمنة لنشر العدالة والمساواة .

وكانت شخصية النبي محمدﷺ – من أكثر شخصيات الرسل شيوعاً في نتاجه الشعري، وقد أخذت شخصية النبي – ﷺ – دلالات متنوعة كثيرة في قصائد عامر بحيرى . وأكثر هذه الدلالات شيوعاً هي استخدامها رمزاً شاملاً للإنسان العربي سواء في انتصاره أو في عذابه .

ففي قصيدة " النبي والمعركة "[2] يعبر عن قلب مفعم بالحب السامي، الحب الروحي للنبي – ﷺ في شوق حار، ومناجاة صادقة، وفي تجربه شعرية ذاتية، يتغنى فيها بأخلاق الرسول وخلقته وأنواره وتشريعه السامي، ثم يتحدث عن فتح

---

(١) انظر / آفاق الأدب الإسلامي / د/ نجيب الكيلاني / ط / مؤسسة الرسالة ط / ١٩٨٥م / ٣٨، ٣٩ .

(٢) ديوان / عامر/ ٤٦١/١ .

مكة وسياسته الرشيدة التي اتبعها في هذا اليوم، وكيف أنه اتخذه رمزاً للوحدة الكبرى للناس في كل زمان ومكان يقول[1]:-

صوت النبيَّ لأّهل الأَرض بلَّغها فأَنصـــتَ فـــي مـــاض ومقتَبـــلِ

وقـام يـدفع عنهـا كـلَّ مجتـرئٍ نـدبا بقلـب عـن الإيمـانِ لـم يحُـل

* * *

فـي فـتح مكـة كـان السـلمُ آيتـه والصـفح عـن كـلَّ مأسـورٍ ومعتقـلِ

إذ قـام يخطـب والأَفـواج حاشـدةٌ والنـاس مـن أَعـزلٍ فـيهم ومشـتملِ

هذا هو البيت ذو الأركان طهَّره يكفيـه منـه سـقوط الـلات أَو هُبـلِ

رمـزاً إلـى الوحـدة الكبـرى يبلَّغهـا للخَلْـق فـي غيـر مـا صـبرٍ ولا كَلَـلَ

فهو يحض المسلمين في عصرنا الحاضر على الحفاظ على هذا النصر وهَذه الوحدة ويستمر عامر في قصيدته بعاطفة صادقة قوية، تثير مشاعر الآخرين وتحرك عواطفهم الحميمة، وتثري خواطرهم بالخلق العظيم، وتهذب نفوسهم بآيات الحب والجمال، وتصفي أرواحهم بالإشراقات الروحية الربانية من خلال حديثه عن رحلة " الإسراء والمعراج " .

فـي ليلـةٍ كانـت الظلمـاءُ حالكـةٌ والأَنجـم الزهـر فـي الآفـاقِ كالشُّـعلِ

الناس في نومهم والكون مرتقب لحادثٍ في السموات العُ َلى جلَلِ

ويتعجب من إنكار هذه المعجزة بالرغم من سعي العلم لها في عصرنا الحديث، وهنا يربط الشاعر بين هذه المعجزة الإلهية، وما وصل إليه العلم الحديث .

إِنـي لأَعجـب مـنِ إنكـار معجـزةٍ والعلمُ يسعى لها في عصرنا الحفلِ

في غابر الأُفق أَبحاث يقوم بها فـي الكـون مـن مائـلٍ فيـه ومعتـدل

فكيـف إن حقـق الـرحمن آيتهـا بمركـبٍ فـوق إدراك النهـي ذُلُـل ؟

كلُّ الذي أَنفق العلم السنين له أَتـاه أَحمـدُ فـي لحـظٍ مـن المُقَـلِ!

(١) قالها في غرة المحرم ١٣٨٨هـ – ٣٠مارس١٩٦٨م .

ويأتي حديثه عن الهجرة النبوية وما دعت إليه من مثل وعظه وعبر، توقظ من يطلع ويريد الاقتداء بها والسير على منوالها .

ويربط عامر بحيرى بين ماضينا وموقف اليهود من عرب ومسلمين وبين حاضرنا وما صرنا إليه بعد ان استولت على الأرض ود نست المسجد الأقصى، وذهب قبر المسيح يقول:

اليـوم تمـرح فـي سـيناءَ لاهيـةً وتعتلـي ضـفَّة الأردنِّ فـي جـذَلِ

وتــدخل المســجد الأَقصــى بأحذيــة لشـرَّ حـزبٍ مـن الأَوغـاد و السَّـفل

قبـر المسـيحِ مـن الآثـار منتهـبٌ وتـاج مـريمَ بعـد الحلْـيِ فـي عطَلِ

ومرتقي العز من نور البراق غدا مـرابط الخيـل يـا ذلي ويـا خجلي !

ويضـع الشـاعر الحل لهزيمتنا ونصرنا، وهو الإيمان بالله وجعل مبادئ الإسلام وقواعده أسس نستمد منها طاقتنا وسلاحنا وبهذا يستشعر المسلمون شمائل القوة والسيادة والمجد .

وإنمــا تنصــر الأَوطــان أَفئــدةٌ توحَّـدت دون صـف غيـر منخـذلِ

إذ يخرج العرب جيشا لاصـدوع به فيغسـل الأَرض مـنهم كـلَّ مغتَسـلِ

إن النفوس إذا ما طهرت صلحت لحمـل أَعبـاء جهـدٍ غيـر محتمـلِ

غــداً لنــا أمــلٌ فــي الله ناصــرنا وكـم لنـا فـي رسـولِ الله مـن أَمـلِ !

ولا انتصــار لنــا إلا بصــادقةٍ من توبة النفس أو من صالح العمل

فعامر يري أن الأمل في نصرة هذه الأمة في الله وفي رسوله ﷺ .

ويختم قصيدته بإظهار خير النهج هو نهج هدي الرسول ﷺ، وهو الصالح لكل زمان ومكان فبه تصلح الأرض وتفلح الأجيال جيلاً بعد جيل، وينهي قصيدته بطلب الشفاعة من الرسول – ﷺ .

خير المناهج نهجٌ قد سلكتُ له ... من واضح الرأي ما يحمي من الزَّلَلا
هدي لأحمد في القرآن فصَّله ... لسائر الخلق من ساع ومُتَّكِلِ
الأرض لله كلُّ الناس تفلحها ... جيلاً بجيل فتعطي طيِّب الأُكُلِ
والغاب يحميه والهيجاء طاحنةٌ ... فوجٌ بفوج من الآساد والشُّبل !

.....

هذا قصيدي بدمع العين أَنظمه ... درًّا لعل رسول الله يشفع لي

– وهناك دلالة أخرى حملتها شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام، وهي ازدهار الماضي العربي وتألقه، في مقابل انطفاء الحاضر .
يقول عامر في قصيدته " نهج البردة " [1]:

حصن النبوة يأَتي العالمون له ... مِن الجهاتِ وأَنتم منه في العتبِ
هذا هو الشرف الباقي فلا سبب ... أقوى لمتَّصلٍ من ذلك السببِ
والعصر مندفعٌ في غيه نزقٍ ... بين الجنون وبين اللهو والصخبِ
ما شيدت يده يوماً مؤسسةٍ ... إلاَّ أُحيلت لمغني ظلمة خربِ
آنا بحرب تسويها وآونة ... بشوب كأْس بغير الكفر لم تشبِ
حربٌ صليبية أخرى قد اندلعت ... باتت خديعتها أَدهى من الصُّلبِ
فالملحدون وأَهل الشرك في ... والمسلمون وأَهل الصدق في لعبِ عما

– ودلالة ثالثة أشار إليها عامر بحيرى وشعراء آخرون وهي الإشادة بأخلاقه ﷺ وشمائله وبمنجزات دعوته وما قدمته للإنسانية من خير كانت أحوج ما تكون

(١) ديوان عامر /١/٤٦٧ .

إليه؛ ولا غرو لأنه النموذج الإنساني الفريد الذي تحلى بالخلال النبيلة والشمائل العالية والأخلاق الرفيعة ! إنه رسول الله ﷺ الذي يوحى إليه ولا ينطق عن الهوى، والذي أدبه ربه فأحسن تأديبه، ولكنه مع ذلك بشر!

فهو ﷺ – يجسد صورة الكمال الإنساني أمام الأمة الطامحة إلى المجد، ويقدم صورة البطل المصلح الذي يحتاج إليه كل زمن يعتريه الفساد، وهو – عليه الصلاة والسلام ببشريته يغرى بالاقتداء والتأسي .

يقول شاعرنا: (١)

هذا نبيُّ الهدى أَدَّى رسالته ... إلى العباد وأَلقى أَبلغ الخطبِ

لما تمثلته في حرِّ موقفه ... رأَيت دنيا الهدى دارت على قطبِ

رأَيت أَشجع خلق الله مدّرعاً ... يلقى الوغى مقدما بالسيف ذي الشطبِ

رأيت أَروع خلق الله منتصراً ... قبل اللقاء على الأَعداء بالرُّعبِ

رأيت أَعدل خلق الله لو رميت ... بالذنب فاطمُ سوَّى الرأَس بالذَّنبِ

رأيت أَكرم خلق الله شيمته ... إعطاء من ليس يخشى فجأَة النُّوبِ

رأيت أَجود خلق الله راحته ... كالريح مرسلة في كلِّ مضطربِ

رأيت أَحلم خلق الله تعرفه ... والحلم يغلب منه سَوْرة الغضبِ

رأيت أَعلم خلق الله قد كشفت ... له الحقائق تجلو حالك الرِّيبِ

رأيت أَفصح خلق الله قاطبةً ... لأَنه بالمثاني أَفصح العربِ!

وما أحوج الإنسانية إلى خلالك يا رسول الله كي تنقذها من الفساد الذي صارت إليه . وهذا ما لفت نظر عامر بحيرى، فالأمة الإسلامية في عصرنا هذا على

(١) ديوان عامر /١/٤٧٠ .

مقربة من الضياع توشك أن تعصف بها الأحداث السياسية، ومؤمرات الاحتلال، ومتغيرات الظروف الاجتماعية والثقافية، فإن استدعاء العظمة الإسلامية متمثلة في أعظم رجالها – عليه الصلاة والسلام – في مثل هذه الظروف يصبح أمراً واجباً؛ لأنه يرد إلى الأمة ثقتها بنفسها، ويقوي أملها في الخروج من مآزقها ويرفع أبصارها إلى ما فوق الأحداث الخانقة، ويمد أعينها إلى ساحة البطولة والمجد ويغري أبناءها باستلهام العظمة من تاريخ العظماء الذين صنعهم الإسلام فكانوا رجاله وحماته وكانوا للأمة هداة ومعلمين، بفضل معلمهم وقائدهم وهاديهم – عليه الصلاة والسلام –

ولكم كانت الأمة في أمس الحاجة إلى هذه الدروس النافعة تستلهمها من تاريخها الإسلامي العظيم، تربية لوجدان أبنائها، وبعثاً للقيم الكامنة في قلوبهم وتبصرة لهم بمعالم الطريق نحو الحق[1]، ولعل هذا ما قصد إليه " شوقي " حين نظم ديوانه " دول العرب و عظماء الإسلام " وهو في منفاه فيما بين "١٩١٥ – ١٩١٩ " إذ يقول: [2]

حتـــى أَراد اللهُ أَن نظمـــتُ مـن سِـيَرِ الرجـال مـا اسـتعظمتُ

عِلماً بما تبعثُ في الأَحداثِ جلائـــلُ الأَعمـــال والأَحـــداثِ

إِن الصـبيَّ مـا تُغذِّيـه اغتـذى فـاكثرْ عليـه فـي المثـال المحتَـذَى

على أن إيتاء العظمة حقها أمرلازم في كل آونة وبين كل قبيل – كما يقول العقاد – بل هو " في هذا الزمن وفي عالمنا هذا ألزم منه في أزمنة أخرى لسببين لا لسبب واحد:

أحـدهما: أن العالم اليوم أحوج ما يكون إلى المصلحين النافعين لشعوبهم وللشعوب كافة، ولن يتاح لمصلح أن يهدي قومه وهو مغموط الحق معرض للجفوة والكنود .

(١) الاتجاه الإسلامي في الشعر المصري المحافظ من (١٨٨٢م –١٩١٩) د/ نبيل سليمان طبوشة – ط / الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠م/١٨٧ .

(٢) دول العرب وعظماء الإسلام / أحمد شوقي /ط/ دار الكتاب العربي ١٩٧٠م/٦ .

والسبب الآخر:أن الناس قد اجترأوا على العظمة في زمننا بقدر حاجتهم إلى هدايتها . فإن شيوع الحقوق العامة قد أغرى أناسا من صغار النفوس بانكار الحقوق الخاصة . حقوق العلية النادرين الذين ينصفهم التمييز وتظلمهم المساواة ."[1]

وهناك فكرة مهمة ألمح إليها عامر في مدائحه النبوية: وهي أن النبي ﷺ قد واجه أعداءه بوسائله المتاحة والتي كانت أقل مما يملك الخصم، ولكن قوة الإيمان والثقة في الله قد جعلت من كل مقاتل كتيبة قوية استطاعت أن تنسف بناء الشرك وأن تدك حصون الباطل:

يقول في ملحمته " أمير الأنبياء "[2]في معركة " بدر الكبرى " [3]:

تلاقى الجمع والتحم الخميسُ وفي نار الوغى .. حِمَى الوطيسُ

وقام محمدُ .. حذرا .. يناجي مناجاة تطيب لها النفوسُ

فلو هلكت عصابةٌ يوم بدرٍ لما رُفعت لأُمتَه رؤس

هناك قام وسط الجيش يدعو فكلّ الجيش مندفعٌ حميسُ

وجيش الكفر منهزم كئيب رسول الموتِ بينهم يجوسَ!

۞۞۞

ولاحت في الفَضَاخيل تحمحمْ وصاح كبيرها .. حَيْزُومُ أقدم !

فيا الله من مددٍ رهيبٍ أضاء شعاعه والنقع مظلم

ملائكة السماء على جيادٍ من الأنوار نازلة .. تدمدم

(١) عبقرية محمد ﷺ – عباس العقاد /١٢ وما بعدها .
(٢) ديوان عامر /٩/٢/ وهي ملحمة بلغت عدد أبياتها ٥٤٠بيتاً .
(٣) ديوان عامر /٣٣/٢ .

تقــدمت الصــفوف وجاوزتهــا ... تُقَتَّــلُ أو تُشَّــتتُ أو تحطــم

فـتلكم بـدر .. للـدين انتصـار ... ومفخـرة الحيـاة لكـل مسـلم !

وتلك اشارة لها دلالتها: وهي أن نمضي إلى أهدافنا بعزم وإصرار وأن نواجه أعداءنا بما نملك من وسائل، ولا نتخاذل أو نعتذر بضعف امكاناتنا . فالمهم هو الإيمان بالله والثقة بالنفس والجهاد في سبيل الحق حتى النصر أو الشهادة .

كذلك كان التركيز على معاني البطولة والفداء والشجاعة والإقدام في حياة الرسول ﷺ من المعاني التي ضربها عامر مثلاً للاقتداء يقول في ملحمته "أمير الأنبياء" عن فتح مكة[1]:

نبــيُّ الله عــز بــه الرجــاء ... وتــمّ الفــتح لــم تهــرق دمــاءُ

ولكــن القبائــل مــن ثقيــفٍ ... مشــت للحــرب يحفزهــا إعتــداء

فســار لهــم إلــى وادي حنــينِ ... تؤيــــده الملائكــــة الوِضــــاء

وكــان ثباتــه دَرْســاً بَليغــاً ... لمــن ولَّــى وضــاق بــه الفضــاء

فقــد كــان النبــيُ أشــدُّ عزمــا ... وعــزم محمــد .. أبــداً مضــاء !

كــذلك تــم إخضــاع الجزيــرةُ ... وعــز العُــرَب بالشــمسِ المنيــره

فمـن بطـائحهم شـمس أضـاءتْ ... بنــور الحــقِّ فــي وهــج الظهيــره

وهكذا استطاع شاعرنا أن يلفت أنظار المعاصرين إلى مكان القدوة في تاريخ النبي العظيم ﷺ .

– ومن شخصيات الأنبياء التي استدعاها عامر بحيرى في ملحمته " هداة البشرية "[2] نوح عليه السلام، وهود وصالح عليهما السلام، وإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ويوسف الصديق عليه السلام، وشعيب عليه السلام، وموسى عليه السلام، ومحمد عليه السلام.

(١) ديوان عامر /٤٣/٢ .
(٢) ديوان عامر /٥٣/٢ .

منوهاً بما في حياتهم من مواقف إسلامية تستلفت أنظار المعاصرين، وتضع أقدامهم على الطريق الصحيح إلى خيري الدنيا والآخرة .

كما أنه يوضح من خلالها أن الدين كله من عند الله، من عهد نوح عليه السلام – إلى عهد محمد – ﷺ – وأن المؤمنين كلهم أمة واحدة، وربهم الله الواحد رب الجميع .

وتثبت الوحي والرسالة والوحدانية لله، وتوحد الأديان، والإنذار والتبشير، ومظاهر القدرة الإلهية وعاقبة الخير والشر والصبر والجزع، والشكر والبطر.... .

وغيرها كثير من الأغراض الدينية، والمرامي الخلقية، كما أنها تبرز الفارق بين الحكمة الإنسانية القريبة العاجلة، والحكمة الإلهية البعيدة الغيبية .

وقد بدأ عامر ملحمته " هداة البشرية " بمقدمة طويلة وضح خلالها أسباب ودوافع استدعائه لهؤلاء الرسل عليهم السلام . فقد ضرب بهم نموذجاً بشرياً واقعياً يمكن أن يقع في أية لحظة، وأي عصر من العصور يقول:

يا هداةَ البشرية نفحة العطر الزكيّه
أَنشروها في ربى العقل ودنيا الأريحيّه
واملأوا الكون .. من الحق .. بأنوارٍ سنيه
كم بنُيتْم من صروح بيد العزم القويّه
ورفعتم راية العلم .. لحرب الجاهليّه
وكتبتم حكمة الدهر .. سطوراً ألمعيّه
وتلوتم أية الله .. لحونا قُدُسيّه
نعمة الرحمن أنتم في الحياة الدنيويه
ويد الإنقاذ من شر، وضرٍ،ورزيّه
وهدى أرسله الله .. لإسعاد البريّه!

ثم بدأ في ذكر ملخصاً لقصص الأنبياء، قبل أن يعرضها تفصيلاً في ملحمته، موضحاً الهدف من استدعائها فالحادثة فيها لا تقف عند دلالتها المفردة، والشخص لا يقف عند كيانه الفرد، وإنما تشير الحادثة إلى السنة الشاملة، ويشير الشخص إلى " الإنسان " من وراء الظروف والملابسات .

وترتسم يد القدر من وراء الأشخاص والأحداث، على أنها القوة الموجهة المريدة التي تسير كل شئ بمقتضي الناموس الأكبر الذي يحكم الوجود [1] .

يقول:

كتـــب الإنســـان فـــي الأر ض .. فصـــــولا قصصـــــيّه

وبنـــــو آدم .. قـــــاموا بـــــأداءِ المســـــرحيّه

أســـكروا الأرض فســـالتْ بكـــــؤوس دمويّـــــه

واســـتباحوا المـــال والعـــر ض .. لأغـــــراض دنيّـــــه

وشـــعوب الأرض تشـــقى بـــــالحروب القبليّـــــه

كلمـــا ضـــلت طريقـــاً بعـــــث الله نبيّـــــه !

***

نســج الكســوةَ للأجســاد .. إدريـــــــس .. تقيّـــــه

وانبـــرى فـــي فلكـــه .. نـــو ح .. لحفـــــظ البشـــــريّه

وارتقـــت دعـــوة إبـــرا هـــيم للـــذاتِ العليّـــه

وحبـــاه ســـر إســـما عيـــل .. والـــنفس الرضـــيّه

يعبـــــدان الله ربَّـــــا ويشـــــيدان البنيّـــــه[2]

ومشـــى موســـى لفرعـــو ن .. بســـحر الموســـويّه

(١) راجع / منهج الفن الإسلامي / محمد قطب، ط/ دار الشروق ط/ السادسة / ١٩٨٣م .
(٢) البنية : الكعبة المشرفة .

وارتقـــى فـــي طـــور ســـينا ء .. إلـــى الوعـــد .. رقيّـــه
ومشـى عيسـى .. ومـا أقصـر فـــــي الأرض ســـــنيّه
تاركـــا آيتـــه الغـــراء .. للـــــــدهر قضـــــيه !

***

ثـــم لاح النـــور .. مـــن قلـــب الـــبلاد العربيّـــه
وازدهـــى غـــار حـــراءٍ فـــي الليـــالي القمريّـــه
ومشـــى أحمـــد بـــالقر آن .. آيـــات طليّـــه
بكـــــــلام الله .. دوَّى فـــي حمـــى البيـــد دويّـــه
طائفـــاً بالكعبـــة الغـــراء .. صـــــبحاً ، وعشـــيّه !
أنبيـــاء الله جـــاءوا برســـالات وضـــيّه
مـــا دعـــوا للظلـــم والبغـــي و لا للطائفيّـــــــــه
بـــل دعـــوا للحـــب صـــرفا والمعـــاني الأخويّـــه
غيـــر أن النـــاس ضـــلوا سُـــبُلَ الحـــقَّ الجليّـــه
شـرعة الحـرب لـدى الإنسـان .. باتـــت عالميّـــه
إن مضـــى قيصـــر نـــادوا بنـــداء الهتلريـــه
أو تـــآخى النـــاس لاقـــو هـــم بســـيف العنصـــريه !

وتأتي قصة آدم وحواء عليهما السلام، مصورة لدعوة الحب والصدق أسمى تصوير، وموضحة قصة البشرية كلها من المنشأ إلى المصير، قصة الإنسان من مبدئه إلى منتهاه، وقد صاغها الشاعر على هيئة محاورة بين آدم وحواء عليهما السلام وبين محاورهما . يقول(١):

لـــو عـــاد آدم .. بعـــد مـــا ذهـــــب الزمـــــانُ وأدبـــــرا

ومشـــــى إليـــــه ســـــائلٌ مـــــن عصـــــرنا مستفســـــرا

عمـــا جـــرى مـــن أمـــره ؟ مـــاذا يقـــول أبـــو الـــورى !

ويؤكد الشاعر بأبياته عن تكريم الله سبحانه وتعالى للإنسان بأن خلقه عن قصد منه سبحانه وتدبير: ﴿ .. **إِنِّي جَاعِـلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَـةً** ﴾(٢) فهي إرادته العليا التى " جعلت " الإنسان إنساناً ، وهى إرادته العليا كذلك التى "جعلت" لهذا الإنسان مهمة معينة .. مهمة الخلافة عن الله فى الأرض .

ومنذ اللحظة الأولى تحدد له مهمته فى إعلان ووضوح . فهو مخلوق مميز الوضع منذ أول لحظة ، متفرد فى ظروف وجوده وخلقته ، لا كغيره من المخلوقات ! (٣)يقول البحيرى :

يقـول آدم : إن الله أكرمـــني فكنـــتُ أول خلـــق صـــاغه بشـــرا..

مـا كـاد ينفـث فـيَّ الـروح ملهمـة حتـى نزعـت إلـى التسـبيح مبتـدرا

وهذا يوضح أن الإنسان منذ مولده مخلوق للأرض، فهو لم يخلق ليبقى في الجنة، التي شهدت مولده، ولم تكن إرادة الله له أن يبقى في الجنة، ولا أن يكون دوره النشيط فيها . ومع ذلك تتاح له هذه الفرصة القصيرة ليتذوق طعم الجنة ويعلم كم فيها من نعيم . ويعلم كم يستحق هذا النعيم ! إن الجنة بالنسبة له ليست خيالاً طائراً، ولا شوقاً مبهماً، ولا أمنية حائرة، وإنما هي حقيقة يشهدها

(١) الديوان /٥٦/٢ .
(٢) سورة البقرة /٣٠ .
(٣) انظر /منهج الفن الإسلامي /محمد قطب /ط/دار الشروق/١٦٤ .

بنفسه قبل أن يهبط إلى الأرض لدوره المقسوم .. لتظل ذكراها في نفسه حية نابضة، و حنينه إليها مشاعر واضحة، وسعيه للعودة إليها حقيقة واقعة.

وينتقل الشاعر إلى سبب خروجهما من الجنة، ومعصيتهما لأمر الله سبحانه وتعالى، ويرده إلى نقطة ضعف الإنسان التي يستزله منها الشيطان، فالإنسان يضعف أمام الشهوات، يستوي عنده أن تكون شهوة علم، أو قوة، أو سلطان، أو ملك، أو جنس، أو خلود .

إنها "شهوة" حين تركبه فلا يملك نفسه منها .. لا يملك الامتناع عنها حين يريد "الامتناع" وعندئذ يتدخل عدوه الواقف له بالمرصاد، فيقوده من خطامه في طرق الشهوات . وعندئذ يبعد به عن الدور المعدّ له . دور الخلافة عن الله . فهو مشغول بشهوته، عاجز عن ضبط نفسه إزاءها . عاجز عن الارتفاع عنها، عاجز عن توجيه وجهه إلى أعلى .. إلى الله .

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ (١) .

ولكأنما كان ذلك هو الموعد المضروب لهما أن يهبطا إلى الأرض، ليؤديا دورهما الأصيل .

﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ (٢) .

وهو ما عبر عنه الشاعر بقوله:

... ... **لكنه قدرٌ فوقى له الغَلَبُ !**

ولكن لم يكن بد من التجربة قبل الهبوط .. ليعرف الإنسان – من تجربته الذاتية – لماذا هبط من النعيم . ليعرف إن الذي يهبط به هو شهواته . نقطة الضعف المركبة فيه، وأنه يرتفع حين يضبط هذه الشهوات، حين يمتنع إذ يريد الامتناع، أو يقتضي الأمر الامتناع، وأنه يهبط حين لا يضبط هذه الشهوة، حين لا يملك

(١) من الآية رقم (٣٦) من سورة البقرة .
(٢) من الآية رقم (٣٦) من سورة البقرة .

القدرة على الامتناع .. وإذ يعرف ذلك تدركه رحمة الله . ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾[1] .

إنه لا يهبط إلى الأرض منبوذاً محتقراً مطروداً من رحمة الله، كلا ! فالله قد خلقه ليؤدي دوره في الأرض، المقسوم له منذ الأزل، وإنما كان الغضب عليه للحظة الضعف التي أصابته، فكان الرضا عنه حين عرف ميزان نفسه، وأدرك متى يهبط، وكيف السبيل إلى الارتفاع .

﴿قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ۞وَالَّذِينَ كَفَرواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [2] .

❁❁❁

يقول عامر :

ولـــــو مضـــــى ســـــائله محـــــــــاوراً مجـــــــادلاً ..

فقـــــال: لـــــم عصـــــيته ؟ مـــــــاذا تـــــــراه قـــــائلاً ؟

***

يقول آدم: أنت ابني ولا عجبُ وإن مضت بيننا الأجيال والحقبُ

قد جئت تسألني ما لست تعرفه فدونك اليوم ..تدري ما هو السبب

لم أعصِ ربي ولم أظلم طواعيةً لكنــه قــدر فــوقيٌ لــه الغَلَــبُ !

***

ومن ثم تصبح هذه التجربة ذاتها– على مرارتها – جزءاً من مقومات الخلافة في الأرض، جزءاً من " القوة النفسية " الممنوحة للإنسان، جزءاً من الزاد الذي يزود به لأداء الدور .وهي فوق ذلك عبرة لكل بني آدم، الذين يشهدون في

(١) من الآية رقم (٣٧) من سورة البقرة .
(٢) الآية رقم (٣٨،٣٩) من سورة البقرة .

أنفسهم ذات التجربة، والذين يعرفون قصة أبيهم آدم فيتوقون للعودة إلى الجنة التي أخرج منها أبوهم عليه السلام .[1]

تلك قصة البشرية .. بدأها آدم، وما تزال تتكرر في حياة البشر على صورة من الصور على ممر الأجيال .

وهو ما أراد أن يثبته الشاعر في قصيدته، فالحياة على حقيقتها طريقين:

طريق الطاعة وطريق العصيان، طريق الهدى وطريق الضلال، وأن الإنسان لا يثبت وجوده بطريق الانحراف عن الجادة والعناد مع الحق، إلا في حالة الضعف والمرض والهبوط، أما في حالته السوية، حالة الصحة والارتفاع فإنه يجد ذاته في مستواها الأعلى حين يطيع دوافع الخير والهدى والاستقامة والصعود، ويحقق كيانه بقدر ما يستطيع من إطاعة تلك الدوافع الخيرة المهتدية إلى الله .. أي بقدر ما يستطيع أن يضبط من شهواته ليقدرعلى الصعود .

ويختم الشاعر قصيدته بالموعظة التي تنفع الإنسان على مر العصور ومختلف الأزمان على لسان حواء:

حدثي يا أم .. هل موعظة تنفع الإنسان يرويها الرواه ؟

فأجابت: قل لمن تعرفه من فتى في الأرض يمشي أو فتاه

إجعلوا الصدق شعارا لكم تبلغوا بالصدق غفران الإله

وارفعوا الحب مكانا عاليا " الحياة الحبُّ، والحبُّ الحياه " !

ولقصة آدم وقع خاص في النفس، فهي تبين أن الإنسان مهما أوتي من التجلة والكرامة، ففي طبعه الضعف فهو عرضه لأن ينسى ويأتي ما لا يتفق مع إجلال الله له كما في نسيان آدم وصية الله تعالى، فأطاع إبليس الذي هو أعدى أعدائه، وأصغى إليه وأكل من الشجرة التي نهى عن الأكل منها .كما توضح أن رحمة

(١) انظر منهج الفن الإسلامي /١٦٧ وما بعدها .

الله تعالى واسعة لا ييأس منها عاص ولا مخالف لأمره، فقد تاب الله على آدم بعد ما فرط منه من النسيان ومخالفة وصية الله تعالى إياه [١] .

وتأتي قصة " قابيل وهابيل "[٢] تالية لقصة آدمﷺ، ورابطة لدور الشيطان في حياة الإنسان الضعيف، وكيف يدخل إليه " وقد نبعت هذه الجريمة من نزعة شر، هي حسده لأخيه على ما أنعم الله عليه به دونه، وحرمانه من هذه النعمة يولد لديه إحساساً بالعجز، أو الهزيمة بالقياس إلى أخيه الذي يتوهم هو أنه منافس له، ولو كان هذا الظالم حظى بهذه النعمة لما فكر في الجريمة " [٣].

وعلماء النفس يلحظون أن الشخص الممنوع تسيطر عليه انفعالات شديدة التأثر،فإذا تمثل هذه الانفعال في غضب فقد يدفع صاحبه إلى ارتكاب أي شئ[٤].

وتبدأ أحداث القصة كما ذكرتها أبيات البحيري بأن ولد لأسرة سعيدة في مشرق الدهر وليد ووليده، ولم يكن في الأرض خلق غيرها، ونشأ الطفلان وتوأمهما، ورأى آدم أن يزوج كل توأم بأخت أخيه . وهنا نبحر مع أبيات عامر في أغوار النفس البشرية، وخاصة نفس قابيل، حين علم أن نصيب هابيل الفتاة الجميلة، ونصيبه هو دون ذلك، فحسد أخاه على جمال نصيبه، وأراد أن يحول بينه وبينها، وكان الدافع الأول والأخير لقابيل هو باعث الشر الذي أوعز به الشيطان إليه، فتغلغل في نفسه، وجرى منها مجرى الدم من العروق . تقول الأبيات: [٥]

نشأ الطفلان في ظلّ الحمى نشأة السعد .. لكلٍّ منهما

ولكلٍّ منهما .. توأمُهُ أختُهُ .. فهو يناجي التوأما

(١) انظر/ قصص الأنبياء/ عبد الوهاب النجار / ط/ مكتبة دار التراث /٣٦/٣٧ .
(٢) ديوان عامر /٢/٦١ .
(٣) أسلوب المحاورة في القرآن الكريم /د.عبد الحليم حفني /ط/الهيئة المصرية العامة للكتاب /ط/الثانية /١٩٨٥ /١٠٨ وما بعدها .
(٤) انظر المرجع نفسه /١٠٩ .
(٥) الديوان /٢/٦٢ .

ورأى آدم .. تـــــــــــزويجهُم قلـت: سـبحان الـذي قـد ألهمـا

قــال: لا يبنــى بأخــتٍ واحــدٌ إن هـذا الشـرع مـن وحـي السّـما

فـــأبى قابيـــل واشـــتد بـــه غَضَـــبٌ كالنـــار أمســـى مضـــرما

دون هــذا الظلــم حــربٌ مــره أو يُـــروَّي صـــفحة الأرضِ دمـــا

وهكذا تمرد قابيل على شريعة الله تعالى، وراح ضحية الأثرة والحقد، وانبعثت شروره، وامتدت نوازعه فتوعد أخاه، ولم تستطع آصرة الأخوة أن تكون شفيعة أمام ذلك الحقد المتقد في صدر قابيل، ولم تستطع عاطفة الرحمة أن تهدئ من ثورة ذلك البركان الثائر .

وكان هابيل أول من قُتل على ظهر الأرض، وكان قابيل أول من أجرم على ظهر البسيطة من الناس، وانصب على قابيل حينئذ شعور مسيطر رهيب بالندم والذنب، وخاصة بعد أن ذهب عنه انفعاله الذي أدى إلى الجريمة، وتحيره في مواراته .

وفي هذا يقول الشاعر:

ومشـى قابيـل يومـا فـي الرحـاب فـاعترى قابيـل خـوف واضـطرابْ

واســتطار الشــرَّ مــا بينهمــا فـي سـبيل الحـبّ والحـبُّ عـذابْ

وا ذا الميــت فــي الأرض لقــى مـــا درى كيـــف يواريـــه التـــرابْ

وقد عرض عامر القصة باختصار، فلم يتناول كافة جوانبها، ولكنه ركز على الهدف والغرض منها، وهي عدم رضا الإنسان بما قُسم له .

كمـا تـأتي شخصـية قابيـل رمـزاً لكـل سـفاح، ولكـل قاتـل، ولكـل معتـد ... خصوصاً إذا كان ضحيته يمت إليه بصلة ما .

وتأتي قصة " نوح وسفينته " [1] ضمن ملحمة " هداة البشرية" فنوح عليه السلام أول الرسل الذين اختارهم الله سبحانه تعالى لينذروا قومهم الذين تمادوا في غيهم وضلالهم، فعتوا عن أمر ربهم، وقد بذل نوح عليه السلام منتهى وسعه واجتهد بغاية امكانه أن يتبعه قومه في الإيمان بالله تعالى وأن يقلعوا عن عبادة تلك الأصنام وطال الزمن وهو يغاديهم بالنصح ويراوحهم بالعظة سراً وعلانية وهم لا يزدادون إلا إعراضاً ونأيا عن طريقته مع بيان المسرات المترتبة على الإيمان والنعم التي تنتظرهم في عاجل حياتهم من إرسال المطر لسقياهم وسقيا أرضهم ووفرة الأموال وكثرة الذرية .

ويضرب لهم الأمثال ويوجه نظرهم إلى صنع الله تعالى بخلقهم أطواراً مختلفة وعنايته بهم في أدوار حياتهم الجنينية وحياتهم في الدنيا وخلقه السموات والأرض وأن من بدأهم قادر على إعادتهم، ذلك أن من خلق لهم الأرض ومتعهم بما خلق فيها قادر على إعادتهم ومجازاتهم [2].

وهذا دليل قوى لمن ينكر البعث أو يتشكك فيه

يقول عامر بحيرى معبراً عن تعنت قوم نوح:[3]

قال نوح لقومه ...وهو يدعو : لا تكونوا بربكم كفاراً

وأنيبوا إليه واستغفروه تجدوا الله ربكم .. غفارا

إنه الخالق الذي برأ الكو ن .. وشق البحار والأنهارا

إنه الرازق الذي أنبت الزر ع وأعطى منه الجني والثمارا

طالما أرسل السماء عليكم فأهلت بغيثها مدرارا

فأبى القوم أن يصيخوا إليه وأصروا واستكبروا استكبارا

(١) الديوان /٦٣/٢ .
(٢) أنظر / قصص الأنبياء / ٤٧ وما بعدها .
(٣) الديوان /٦٤/٢ .

ويستخدم عامر بحيرى شخصية هود عليه السلام مع قوم عاد للتعبير عن الذي يتولى عظة الناس وإرشادهم والنصح لهم فينبغي أن يكون آخذا إخذ هود عليه السلام في سعة الصدر، وعدم مقابلة الشر بمثله، ويحتمل صلف المدعوين وسوء ردهم عليه رجاء أن يظفر ببغيته منهم، ويفوز بهدايتهم أو هداية بعض منهم .

أنظر إلى قولهم له: ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (١) ثم ماذا كان جوابه ؟

كان جوابه أن قال لهم: ﴿ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ۞ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ (٢)

فمن تأمل في هذا الجواب وجده غاية في دماثة الأخلاق والتلطف في إسداء النصيحة الخالصة من شوائب جر أية منفعة .

يقول الشاعر معبراً عن هذا المدلول:

قال: يا قوم، قد ضللتم سبيل الرشد فلترجعوا إلى الإيمانِ

آمنوا بالذي أمدكم بالخير منه وعمَّ الإحسانِ

فأجابوا: ما أنت إلا سفيه حين سفهت منطق الأوثان

***

قال هود لقومه وهو يدعو : ليس بي من سفاهةٍ أو ضلاله

إنني قد دعوتكم فأبيتم للذي تضمرونه من جهاله

وتأتى قصة إبراهيم وإسماعيل –عليهما السلام – في شعر عامر بحيري لتبرز قيم دينية سماوية في وجدان الإنسان المعاصر منها:

١) أن ثورة إبراهيم على الأصنام وعبادتها لم تكن ثورة كلامية بل كانت ثورة عملية، إذ جعل أصنامهم جذاذاً إلا كبيراً لهم وجعل عمله وسيلة لمحاجتهم حتى أفحمهم فلجئوا إلى مخاشنته والقائه في النار فكانت عليه بردا وسلاماً .

(١) الآية رقم (٦٦) من سورة الأعراف .
(٢) الآية رقم (٦٧، ٦٨) من سورة الأعراف .

٢) أن العقيدة الحقه إذا تغلغت في النفوس وأشربتها القلوب استولت على فكر الإنسان واستغرقت كل خطرات قلبه وملكت عليه مشاعره ووجدانه . فهو يستهين بالنار يلقي فيها، وكل عذاب يحل به دون أن يرجع أو يتقهقر، والمثل الأعلى في ذلك إبراهيم – عليه السلام – الذي كان أول من ضرب المثل للأمم والأجيال بعده [١].

يقول عامر معبرا عن هذه القيم الدينية، داعيا إلى أخذ القدوة والمثل والاقتداء بالأفعال لا الأقوال:

وراح إبـــراهيم ..فـــي قومـــه ... يلقـــي بيـــان الناصـــح المرشـــد

ولـــم يـــزل يخطـــب أفـــواجهم ... فـــلا يـــري للحـــق مـــن مهتـــد

وضـــاق ذرعـــاً وانتهـــي أمـــره ... فـــي ســـورة الفكـــر إلـــى المعبـــد

رآه كـالمتحف .. قـد صـففت ... أصـــنامه بكمـــاء لـــم ترشـــد

لا تســـمع القـــول ولا ترعـــوي ... حتـــى لقـــد أمســـكها باليـــد

وكبَّهـــا كبـــا .. علـــى وجههـــا ... فلـــم تـــزل فـــي وضـــعها الأنكـــد

وأقبـــل القـــوم علـــى فعلـــه ... فـــي ثـــورة مـــن قبـــلُ لـــم تعهـــد

قـــال: ســـلوا الأكبـــر ..يخبـــركمُ ... فإنـــه المجـــرم والمعتـــدي!

قـــالوا لـــه: مـــا هـــذه بـــالتي ... تنطـــق لا تُنْهِـــي ولا تبتـــدي

قـــال: فهـــل بكمـــاءُ منبـــوذةٌ ... تعبـــد والخـــالق لـــم يُعبـــد ؟

أفٌّ لكـــم يـــاقوم أفٌّ لكـــم ... جللـــتم بـــالكفر وجـــه النـــدي

(١) للمراجعة – انظر / قصص الأنبياء /١٠٣ وما بعدها .

فبيتَّـوا الشـر لـه .. لـيلَهُمْ ليـوردوه النـار صـبح الغـد

قـام إبـراهيم فـي النـار مقامـا فغـدت بـرداً عليـه وسـلاما

آيـة مهمـا هـدت مـن مـؤمن أعـرض المشـرك عنهـا وتعـامى

٣) أن إبراهيم لم يدخر وسعا في ابتكار أساليب الدعاية إلى ما رآه من الحق فتارة يلجأ إلى النجوم عله يجد فيها إلها، فلما أفهمهم أن كواكب السماء كلها لا يصح فيها آلهة جهر بأمره قائلاً .

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(١).

فلم يتبرأ من ألهتم لأول وهلة . وبادئ الرأي، بل بعدما جرهم إلى امتحان الألهة واحداً بعد آخر وأبان عجزهم وعدم صلاحيتها لأن يكون واحد منها الها .

يقول عامر:

فـرأي أخـري الليـالي كوكبـاً قـال: ذا ربـي علـى الكـون تسـامى

ورأي ليلـة تـمّ .. قمـراً بازغـاً فـي أفقـه، شـق الغمامـا

ورأي الشمس وقد راحت ضحى تلهـبُ الكـون وتصـليه ضـراما

قـال: ذا ربـي .. فلمـا أفلـت قـال: لا أرضـي مـن النـور الظلامـا

جـلّ شـأن الله ربـي إنـه خلـق الكـون سـويا فاسـتقاما

ولـئن وجهـت وجهـي .. فلـه جـلّ وجـه الله بـدءاً وختامـا !

(١) الآية رقم (٧٩) من سورة الأنعام .

٤) كان إبراهيم قائماً على قدم الاستعداد لتنفيذ أوامر الله تعالى فيما أحب أوكره دون تبرم ولا تذمر متحليا بالتقوى والطاعة والشكر والصبر، وهى مزايا بارعة قل من الناس من يجمعها .

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١).

وقد تجلي صبره على المكاره وإيثاره رضا الله تعالى عنه في تقديمه ولده الواحد إسماعيل ليقتله بيده ويقربه قربانا لله تعالى فأقدم على ذلك صابراً غير مكابر ولا متضجر . وكان إسماعيل عبداً مخلصاً من صغره، وقبل أن يبلغ حد التكليف صابراً على المكاره، فان أباه أخبره أنه رأي في المنام أنه أُمر يذبحه فأجاب إلى ذلك صابراً غير متألم ولا متبرم، ولم يعارض في ذلك، ولم يحل على ذلك أضغاث أحلام بل قال له: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (٢) .

ويعرض عامر هذا الموقف في إطار قصصي درامي رائع قائلاً:

ورأى فـي المنـام رؤيـا .. أهمَّتْـهُ .. فأَمسـى لمـا رآه مشـيحا

قـال: إنـى أُمـرت فـي ذبحـك الليلـة .. أمـرا مـن السـماء صـريحا

قال:فاصـدع أبـي .. بمـا أمـر الله .. تجـدني لأمـره مسـتريحا

فأحـد الشـفار، يصـدع للأمـر .. وألقـاه للتـراب طريحـا

يا صفيّ السماء .. صدَّقت رؤيا ك .. وأصـبحت منجحـا وربيحـا

قـد عفـا الله عـن فتـاك .. وفـدّا هُ سـميناً مـن الكبـاش مليحـا

حـادث بـات للبريـة عيـدا وضـحى بـالنعيم مـال رجيحـا

(١) الآية رقم (١٣٠، ١٣١) من سورة البقرة .

(٢)من آية رقم (١٠٢) من سورة الصافات .

كـــرم الله بالرضـــى وجـــه إبـــرا هـيم .. منـذ افتـدى فتـاه الـذبيحا

وتـأتى قصـة يوسـف عليه السلام لتثبـت أن الإسـلام لا يحـارب الحـب، ولا يقتـل غريـزة الجنس، وإنما يريد لهذه الغريزة التنظيم والتهذيب والتسامي . إن يوسف فتى رائع الجمال، جذاب التقاطيع، يلفت النظر بروعته الفائقة، وفتنته الطاغية "ما هذا بشرا، إن هذا إلا ملك كريم " لكنه على جانب مثالي من الصلاح والورع .. إنه بني من أنبياء الله، ويروي القرآن الكريم قصة امرأة العزيز التي جنت بفتاها حباً ..

" وروادته التي هو في بيتها عن نفسه .."

" ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه .."

" واستبقا الباب "

" وقدت قميصه من دبر"

ثم تأتي الوقفة الدارمية العنيفة:

"وألفيا سيدها لدي الباب .."

لكنها تتنبه للخطر الذي يتهددها من زوجها لو علم أنها تنوى خيانته، وفي نفس الوقت تفكر في أن تطعن الفتي الصالح الذي أذل كبرياءها واحتقر نزواتها، فماذا تصنع ؟؟

قالت لزوجها:

" ما جزاء من أراد بأهلك سوء إلا أن يسجن أو عذاب أليم " وتمضي القصة وسعار الجنس لم يهدأ أوراه في قلبها، وتتحدث نسوة المدينة بقصة امرأة العزيز العاشقة فتدعوهن إلى قصرها، وتأمر يوسف بالخروج إليهن:

" فلما رأينه اكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاشا لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم .."

فترد امرأة العزيز في شبه انتصار وإصرار:

" الآن حصص الحق أنا روادته عن نفسه ...

ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين ...." .

ويخوض يوسف معمعان محنة قاسية رهيبة، يتعرض فيها لذل السجن وعذابه. لكنه سعيد بانتصار القيم الفاضلة في نفسه سعيد بنجاته من حمأة الإثم التي

أوشكت أن تقذف به إليها إمراة العزيز ثم ينتصر الحق، ويعترف النسوة بطهارة يوسف بعد سنين:

﴿ قُلْنَ حَاشَ للهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾
﴿قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ۞ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ۞ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي- إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١)

وهكذا تصور لنا قصة يوسف مع امرأة العزيز، قصة الضعف البشري بكل ملابساته، وانحرافات النفس الإنسانية، ونزوعها إلى الشر، كما تمثل الصراع العنيد بين الفضيلة والرذيلة في أعماقنا . (٢)

إنها قصة جنسية بكل مقومات القصة، ولكن القرآن لا يعرضها لإثارة تلذذ القارئ أو السامع بمشاعر الجنس المنحرفة كما تصنع المذاهب " الواقعية " و"الطبيعية " في المذاهب الحديثة، وكما يعرضها أدباء الغرب في أدبهم العالمي، محاولين اقناع أدبائنا ببدعهم الغربية، فيزيفون واقعهم، ويقلدون دون تفكير وروية .

وعامر عندما يعرضها، يعرضها بكل مقومات القصة من مواقف درامية، موسيقى الألفاظ، عنصر التشويق والمتابعة، الظلال الموحية، ثم الانتصار لفضائل الإنسان وقوة الروح في النهاية .

وهذه أجزاء من القصيدة: (٣)

إمـــرأة العزيز..فـــي الضـــحى.. أصـــابها الضَـــجَرْ
وكـــان زوجهـــا إلـــى الـــديوان هـــم وابتـــدر
والقصـرُ خـالٍ كلُّـه والشـمس تغمـر الحُجَـرْ
فـــدقت النـــاقوس.. والغُـــلامُ للتـــوّ.. حضـــر

(١) الآية رقم (٥١،٥٢،٥٣) من سورة يوسف .
(٢) راجع / الإسلامية والمذاهب الأدبية / د/ نجيب الكيلاني / ط / مؤسسة الرسالة/٥٨ وما بعدها .
(٣) الديوان /٢/٧١، ٧٢،٧٣ .

فصـــــــعَّدت وصـــــــوَّبت فيـــــه وجالـــــت النظـــــر
قالـــــت لـــــه : لأنـــــت أحلـــــى مـــــا رأيـــــت مـــــن بشـــــر
وأنـــــت لـــــو تعلـــــم .. منيـــــة الفـــــؤاد والبصـــــر
وغَلَّقَـــــــتْ أبوابَهَـــــــا وانتظـــــرت .. ومـــــا انتظـــــر

***

اقتربَـــــتْ مـــــن صـــــبِّها وأعلنـــــت عـــــن حبهـــــا
وصـــــرَّحت لـــــه بمـــــا تكنُّـــــه فـــــي قلبهـــــا
قـــــال : معـــــاذ الله ! وهـــــي فـــــي اجتـــــراح ذنبهـــــا
خـــــاف الغـــــلام ربـــــه ولـــــم تخـــــف مـــــن ربهـــــا
يبغـــى الفـــرار وهـــي فـــي دلالهـــــا وعجبهـــــا
همـــــت بـــــه فـــــي ســـــورة الوجـــــد كمـــــا هـــــم بهـــــا
واســـــتبقا البـــــابَ .. ولـــــيس جـــــده .. كلعبهـــــا
قـــــدَّت قميصـــــه ولـــــم يمـــــسَّ طـــــرف ثوبهـــــا
وألفيـــــا ســـــيدها بالبـــــاب .. يـــــا لخطبهـــــا
ففكـــــرت فـــــي أمرهـــــا مخفيـــــة لرعبهـــــا
وانطلقـــــت تشـــــكو لـــــه فيـــــا لطـــــول كِـــذبهـــــا :

وهكذا :

يستمر البحيري في عرض القصة القرآنية دون أن يعرضها لإثارة تلذذ القارئ أو السامع بمشاعر الجنس المنحرفة وهذا ما يجب أن يكون . " فلحظة الجنس – منحرفة أو غير منحرفة – لا تستأهل الوقوف الطويل عندها . فإنها ليست هي الحياة ، إنما هي وسيلة من وسائل الحياة ، إنها عارض يعرض في الحياة ويُقْضَى . يقضي ليفسح المجال لأهداف الحياة العليا الجديرة بالتحقيق . يفسح المجال للتصور الإيماني الكبير للكون والحياة والإنسان لملء المشاعر بذلك التصور ، وإطلاق النفس في واقع الحياة تحاول أن تحقق من كماله ما تقدر عليه من إقامة مجتمع نظيف ، من تربية نفوس مستقيمة ، من إقامة الحق والعدل في الأرض ، من تمتيع الناس بحقوقهم ، وتجميل الحياة لهم بحيث تستحق أن تعاش ، في غير فتنة بها ولا انحراف ، وتلك كلها أهداف ضخمة تشغل الحس البشري ، وتشغل هم الإنسان الرفيع الذي ينبغي أن يعمر وجه الأرض ، ومن ثم لا تستحق لحظة الجنس الوقوف الطويل عندها ، وتفصيصها وإعادتها والتفنن في عرضها ، لأن ذلك إسراف في المقادير بالنسبة لما يلزم الحياة البشرية ، وتحويل الوسيلة حتى تصبح غاية ، وهي ليست كذلك ولا ينبغي أن تكون " [1].

وبعد :

فقد استمد عامر بحيري مادة ملحمته " هداة البشرية " من القصص القرآني ، مستعيناً بثقافته الإسلامية الغزيرة والمتنوعة بالإضافة إلى ما قرأه من كتب التفسير والحديث والسيرة وسائر الكتب الدينية .

ولا غرو ، فقصص القرآني قصص معجز ، بل هو قمة الإبداع الأدبي الذي يمتاز بسمو الغاية ، وشرف المقصد ، " ولم يكن هذا القصص سرداً لبعض الروايات القديمة ، بل هو تاريخ لسيرة الدعوة الدينية في الحياة ، وكيف خطت مجراها بين الناس منذ فجر الخليقة ، وما هي العقبات التي اعترضتها ؟ وكيف تغلبت عليها ؟ وما صنع الأنبياء بإزائها ؟ وكيف قبلت الأمم المدعوة رسالات الله أوصدت عنها ؟ وبم انتهى الصراع بين الغي والرشد ؟؟ " [2]

---

(١) منهج الفن الإسلامي / محمد قطب /١٦١ .

(٢) نظرات في القرآن / محمد الغزالى / ط / دار الكتب الحديثة / ١٩٦١م /١١٤ .

والحكمة المنشودة من وراء هذا القصص نقرؤها في قوله تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (١)

والأنبياء من لدن آدم ، ومن جاء بعده ... إلى أن توجوا بخاتمهم محمد – ﷺ – جميعهم شرحوا أصول العقيدة والخلق والمعاملة شرحاً فياضاً بالصدق ، عامراً بالإخلاص . " وإنك لتسمع إليهم واحداً بعد الآخر – فيما سجل القرآن من وصاياهم ونصائحهم وإرشادهم لأممهم – فتجد كلاماً منسقاً وهدياً منسجماً ، صدر عن مشكاة واحدة ، وانساق إلى هدف واحد ، يمهد أوله لآخرة ، وتصدق نهاياته بداياته ، وكأنهم ليسوا رجالاً توزعتهم أكناف القرون المتطاولة؛ فبين النبي والنبي أعصار وأعصار ، وبين الأمة والأمة غبرت قرى وبادت أمصار .

وكما يدل هذا القصص الموصول على حقيقة الدين ، كذلك يدل على طبائع الناس ووسائل علاجها ، وسنن الله في عقابها ومعافاتها ..

فإن الإنسان هو الإنسان ، من مائة قرن خلت إلى مائة قرن يلدها المستقبل المنظور – لو امتد أجل الحياة – لن تتغير طبيعته ، ولن يتبدل جوهره " (٢)

" وما أحوجنا اليوم في صراعنا مع التيارات الملحدة أن نعود إلى القصص القرآني الكريم ، وهو يحكى لنا هذه الصورة الحية المشرقة في حياة الأنبياء والمرسلين ، وأن نستحضر في ذاكرتنا جل ما خوطبت به الأمة الإسلامية ، وهي تتحرك في واقع الحياة إلى الدعوة إلى الله .

بل ما أحوجنا اليوم أن نلتمس العبرة من قصص المرسلين ، فإنها بصائر تهدى السالكين ، وتجارب حية نابضة للذين يدعون إلى الله عن بصيرة وهدي ." (٣)

وما أحوجنا اليوم إلى أن ننظر إلى القصص القرآني ، الذي لا تنقضي عجائبه جيلا بعد جيل ، فلقد أغرق العالم اليوم بطوفان متلاطم من القصص ، وما أكثر الذين فتنهم قصص المخلوقين عن قصص الخالق سبحانه ، وأخذوا يتلفتون شرقا

(١) الآية رقم (١١١) من سورة يوسف .
(٢) نظرات في القرآن /١١٥ .
(٣) القصص القرآني بين المفسرين والقُصَّاص قديماً وحديثاً . د / طه عبد الفتاح مقلد / بدون /٣، ٤

وغربا ويمنة ويسرة ، ونسوا ما ذكروا به من القصص القرآني الذي أحكمت آياته .

ثانياً : رموز التاريخ الإسلامي وأعلامه :-

الأحداث التاريخية والشخصيات التاريخية ليست مجرد ظواهر كونية عابرة ، تنتهي بانتهاء وجودها الواقعي ، فإن لها إلى جانب ذلك دلالتها الشمولية الباقية ، والقابلة للتجديد – على امتداد التاريخ – في صيغ وأشكال أخري ؛ فدلالة البطولة في قائد معين ، أو دلالة النصر في كسب معركة معينة تظل – بعد انتهاء الوجود الواقعي لذلك القائد أو تلك المعركة – باقية وصالحة لأن تتكرر من خلال مواقف جديدة وأحداث جديدة ، وهي في نفس الوقت قابلة لتحمل تأويلات وتفسيرات جديدة (١) ، إذ " إن التاريخ ليس وصفاً لحقبة زمنية من وجهة نظر معاصر لها ، إنه إدراك إنسان معاصر أو حديث له ، فليست هناك إذن صورة جامدة ثابتة لأية فترة من هذا الماضي ." (٢)

وهذه الدلالة التاريخية ، بما تشتمل عليه من قابلية للتأويلات المختلفة هي التي يستغلها الشاعر المعاصر في التعبير عن بعض جوانب تجربته ، ليكسب هذه التجربة نوعاً من الكلية والشمول ، وليضفي عليها ذلك البعد التاريخي الحضاري ، الذي يمنحها لوناً من جلال العراقة .

والشاعر يختار من التاريخ ما يوافق طبيعة الأفكار والقضايا والهموم ، التي يريد أن ينقلها إلى المتلقي ، ومن ثم فقد انعكست طبيعة المرحلة التاريخية والحضارية التي عاشتها أمتنا العربية وإحباط الكثير من أحلامها ، وسيطرة بعض القوي الجائرة على بعض مقدارتها ، والهزائم المتكررة التي حاقت بها رغم عدالة قضيتها .. انعكس على الموروث التاريخي لدي شاعرنا متمثلاً في مسرحياته الشعرية التاريخية ، وقصائده الشعرية وقد تحدث عامر بحيري عن شخصية خالد بن الوليد كقائد من قواد العرب والمسلمين في فترة زاهية من تاريخ العرب والإسلام ، وجد فيها متنفساً لأحاسيسه ومشاعره وعواطفه ، ورأي فيها خير دليل على عزة

(١) راجع / استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر /١٢٠ .
(٢) دراسة الأدب العربي / د . مصطفي ناصف . ط / الدار القومية للطباعة والنشر / بدون / ٢٠٥ وما بعدها .

الإسلام والمسلمين ، حين كانوا متحدين ، يعملون على نشر دينهم بعزيمة وإخلاص ، متيقظين لد سائس الدخلاء ، حريصين على أن يرفعوا لواء الدين عالياً ، وينشروا كلمة الله في مكان .

ولا شك في أن فتوحات خالد بن الوليد تعد مفخرة من مفاخر التاريخ العربي والإسلامي ، وأن إعادته للأذهان ، تبعث في النفوس المؤمنة قبساً من الأمل ، وتحيي العزائم الخائرة ، وتنعش النفوس الفاترة . وهو يقول في ذلك :-

" تعالج هذه الرواية (١)سيرة بطل إسلامي عظيم ، وتحلل عصراً إسلامياً عظيماً ، هو صدر الإسلام الأول ، حيث الحروب ناشبة ، والجيوش متطاحنة، والفتوح عظيمة متتابعة ، كان خالد بن الوليد شابا مخزومياً ، عظيم الجرأة والشجاعة ، وكان في جاهليته كعمر بن الخطاب ، معتزاً بشخصيته ، فلم يدخل في الإسلام إلا بعد جدال وحرب كما فعل عمر .. ولكن تجربة خالد كانت أقسي على نفسه وعلى المسلمين جميعاً ، فهو الذي كشف عن صفوفهم في أحد ، والتف حول الجبل في حركة حربية فنية . وقد كان وهو ما يزال في الخامسة والعشرين من عمره ، أميرا على خيل المشركين ، فرمي رماة المسلمين وأوقع الخلل في صفوفهم ، وألقي في قلوبهم الرعب ، حتي تسبب في هزيمتهم .. ولكن الله هدي خالداً ، كما هدي عمر بن الخطاب من قبل ، فأسلم وكان سيف الله المسلول على أعداء الإسلام ، فهو الذي حارب المرتدين أيام أبي بكر ، فكان أقطع سيف سله خليفة رسول الله على أولئك الخارجين ، ثم أرسله أبو بكر إلى العراق وفارس ، فكان من أمره العظيم في تلك الأصقاع ما كان ، ثم احتاجت جيوش المسلمين في الشام إلى مدد ، فأرسله أبو بكر مدداً لأهل الشام ، حتى إذا كان على وقعة اليرموك ، وقد جمع خالد المسلمين على قائد واحد ، وتولى بنفسه قيادتهم ذلك اليوم ، وقاربت أن تنجلي المعركة عن انتصار ، جاء بريد من المدينة ، بموت أبي بكر ، وتولية عمر ، وعزل خالد ، وتولية أبعبيدة .

(١) هي مسرحية وقد كتب عامر في مقدمتها " كتبت هذه المسرحية الشعرية عام ١٩٤٠م ، وصدرت طبعتها الأولى عام ١٩٤٥م .
انظر الديوان /٢/٨٥ وما بعدها .

والخصومة التي وقعت بين خالد وعمر من قبل ، والتي أدت إلى هذه النتيجة ، والتي يشيع خبرها في المسرحية " من مقتل مالك بن نويرة ، وتزوج خالد من امرأته " وقد وردت في أكثر من موضع من المسرحية . وكأن الكاتب يريد أن يربط بين مقتل مالك وزواج خالد من امرأته ، متأثراً ببعض روايات التاريخ.

يقول في المنظر الثاني من الفصل الأول[1] :-

مالك : أين ابنة المنهال ؟ أين زوجتي ؟ فعندها الصدق الذي لا يكذبُ.

الحارس : أراك جِدْ واهمٍ .. لأنها قد خدعتك .

مالك : كيف ؟ لا ، ما السبب ؟

الحارس :

قد كاتبت على الزواج خالداً في خيمة الأمير عقد يكتب

مالك :

إذاً فلم يبق لودي أحد ويلاه ، حتى هي ؟ حتى زينب !

ويقول في المنظر الأول من الفصل الثاني[2]:-

متمم :

يبتغي القاتل من فعلته لو غدت في بيته زوج القتيل

ابنة المنهال باتت عند مَنْ لا يميز الدف من قرع الطبول

ويقول في موضع آخر من المنظر نفسه[3] :

متمم :

واغتال مالك بعد ما أدَّي الفريضة واعتذر

ونزا على العرس الجميلة .. مثلما ينزو النَّمر !

---

(١) الديوان / ٩٩/٢ .
(٢) الديوان / ١٠٩/٢ .
(٣) الديوان / ١٠٥/٢ .

ويقول في المنظر الثاني من الفصل الرابع [1] على لسان عمرو بن العاص لخالد بن الوليد :

عمرو [لخالد] :

عُمــرٌ واجــدٌ عليــك قــديمٌ وَجــده منــذ وقعــة ابــن نــويره

لــيس حقــدا عليــك لكنــه الظلــم عــن المســلمين يرفــع نيــره

أنــت جـدّلت مالكـا دون ذنـب نزقـا منـك فـي الشـباب وغيـره

ثم أعرست ظالماً بابنة المنهال.. فالنـــاس بـــين شـــك وحيـــره

فأســرَّ الأميــر ذلــك حتــى أصـبح الأمـر فـي الخلافـة أمـره

وتعتبر هذه الخصومة من أعظم الدروس التي يستخلصها المطلع على خبر هذه الحقبة من التاريخ ، وسير أولئك الأبطال ولا تزال بخالد بعد أن بلغ الأوج ، ونال المجد ، حتى تستذله أمام أمير المؤمنين ، وتحطم من كبريائه ، وتقف به في صفوف المسلمين رجلاً عادياً ، بعد أن كان فتنة الجند به ، وتيمنهم بنقيبته، أن تخرجا به عن الجادة .

والمؤلف لا يدع فرصة سانحة تفوته ، دون أن يثبت أفكاره الإسلامية والوطنية، ودون أن يمجد العرب والمسلمين ، ويلمح إلى الجهاد في سبيل إعلاء ونصرة الإسلام .

يقول في أحد المواضع : [2]

اليـوم يبنـي علـى الإسـلام دولتـه خيـر الشـعوب وأبقاهـا علـى الـزمن

ويقول في موضع آخر على لسان أحد جنود المسلمين : [3]

الأول :

أنظـر أخـا الإسـلام هـل رأيتنـا وهــل علمــت فــي النــزال شــأننا

(١) الديوان / ٢/ ١٣٩ .
(٢) الديوان / ٢/ ١١٥.
(٣) الديوان / ٢/ ١٢١.

وقد بسط المؤلف أحداث المسرحية على خمسة فصول ، تنقل بنا فيها بين اليمامة فالمدينة فاليرموك فقنسرين فحمص واعتمد الكاتب فيها على أحداث التاريخ الحقيقية[1] من ارتداد حنيفة ومنعها الزكاء بقيادة مسلمة الكذاب ، وعزم خالد بن الوليد على السير إلى البطاح لملاقاة مالك بن نويرة ، ثم حبس مالك وأصحابه وقتلهم ، وزواج خالد من امرأته ، وثورة عمر بن الخطاب على فعلة خالد بن الوليد ، واستدعاء أبى بكر لخالد بالمدنية ، وإصرار ابن الخطاب على عزل خالد ، واختلاف أبوبكر وعمر في أمر خالد ، وحجة كلا منهما ، ثم أمر أبوبكر لخالد بالسير إلى اليمامة ، ثم وفاة أبي بكر ، وتولية عمر بن الخطاب ، وعزلة لخالد بن الوليد عن إمارة الجيش ، وتولية أبي عبيدة بن الجراح ، وتنتهي المسرحية بموت خالد .

فليكـــرم الله ذكـــراه ويجعلهـــا درســاً لأمتــه فــي مقْبِــلِ الحقــب

ولَيــروِ ســيرته التــاريخ وجــدت فيــه كسيرة هـذا الفـاتح العربـي ![2]

وتأتي مسرحية " الأمين[3] والمأمون" لتعبر عن فترة تاريخية معروفة ، تناقلها الكتاب والمؤرخون ، حتى لا يكاد يخلو منها كتاب من كتب التاريخ والأدب التي أرّخت للدولة العباسية .

---

(١) راجع تاريخ الطبري / ٣/ ٢٧٩ – والأغاني / ٨/ ١٥ / ٢٨٩ وما بعدها .
(٢) الديوان / ١٥٣/٢.
(٣) محمد الأمين (توفي سنة ١٩٨هـ – ٨١٣م) محمد بن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور خليفة عباس ، بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه (سنة ١٩٣م) بعهد منه ، فولى أخاه المأمون خراسان وأطرافها ، وكان المأمون ولي العهد من بعده، فلما كانت سنة ١٩٥هـ أعلن الأمين خلع أخيه المأمون من ولاية العهد فنادى المأمون بخلع الأمين في خراسان وتسمى بأمير المؤمنين ، وأنتهى الأمر بقتل الأمين ، كان شجاعاً رقيق الشعر سئ التدبير يؤخذ عليه الظرافة إلى اللهو ومجالسة الندماء " الاعلام ١٢٧/٧ " .
– المأمون (توفى سنة٢١٨هـ – ٨٣٣ م) هو عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور . نفذ أمره من أفريقية إلى أقصى خراسان وما وراء النهر والسند ، عّرفه المؤرخ ابن دحّية بالإمام " العالم المحدّث النحوياللغوي " ولي الخلافة بعد خلع أخيه الأمين " سنة ١٩٨هـ " فتمم ما بدأ به جده المنصور من ترجمة كتب العلم والفلسفة ، فقامت دولة الحكمة في أيامه " الأعلام/ ٤ / ١٤٢ " ، " وراجع الأغاني / ٥ /٦٥ " .

وقد اختار المؤلف طرفا من تاريخ بغداد ، وهو تقسيم الرشيد الملك بين الأمين والمأمون والصراع الذي دار بينهما ، وكيف غدر المأمون بأخيه وكيف استفادت حاشية الحاكم مما دار بينهما ، ليبني عليها مسرحيته . يقول في الفصل الأول على لسان ابن المهدي[1] :

ابن المهدي :

فهنا بقصر الخلد تبصرني إذا أدعي متى ضمّ الأمين المحفِلُ
وأخوه في مروٍ يدس لخلعه أعوانه لكنه لا يحفلُ[2]

ويقول في موضع آخر من الفصل نفسه على لسان القاضي مخاطباً الأمين[3] :

القاضي :

هرونُ قسّم هذا الملك بينكما هذا بمروٍ وذا في دار بغداد
وما رأي عنده فضلا يزيد أخاً على أخ بل رأى أفلاذ أكباد
فلا تكن ناكثا للعهد مبتدئا بالغدر ذلك فعل الظالم العادي

ويقول على لسان زبيدة[4]في الفصل الثاني[5]:

---

(١) إبراهيم بن المهدي : (توفي سنة٢٢٤هـ –٨٣٩م) هو إبراهيم بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور ، العباسي الهاشمي ، أبوإسحاق ، الأمير أخو هارون الرشيد ، ولاه الرشيد إمرة دمشق ثم عزله ، ولما انتهت الخلافة للمأمون كان إبراهيم قد اتخذ فرصة اختلاف الأمين والمأمون للدعوة إلى نفسه ، وبايعه كثيرون ببغداد ، وكانت خلافته ببغداد سنتين تقريباً (٢٠٢ –٢٠٤هـ)، سجنه المأمون ستة أشهر . وك،ان حاذقاً بصنعة الغناء ، مات في سرّمن رأى وصلى عليه المعتصم . " الأعلام ٥٩/١ " ، " الأغاني/١٨٧/٥ " .

(٢) الديوان /١٥٨/٢ .

(٣) الديوان /١٦٤/٢ .

(٤) زبيدة (توفيت ٢١٦ هـ ٨٣١ م) هى زبيدة بنت جعفر بن المنصور الهاشمية العباسية ، أم جعفر : زوجة هارون الرشيد ، وبنت عمه . وهي أم الأمين العباسي . أسمها "أمةالعزيز" وغلب عليها لقبها " زبيدة " وإليها تنسب " عين زبيدة " في مكة . تزوج بها الرشيد سنة ١٦٥ هـ . ولما مات ، وقتل ابنها الأمين ، اضطهدها رجال المأمون فكتبت إليه تشكو حالها ، فعطف عليها ، وجعل لها قصراً في دار الخلافة . خلفت أثاراً نافعة غير العين " . الأعلام / ٣/ ٤٢ " .

(٥) الديوان /١٧٢/٢ .

ملـــك بـــل أخ ينـــافس بـــالحق أخـــاه .. فـــي التـــاج والصـــولجان !

وتبدأ الأحداث في التصاعد مع بداية معرفة الأمين بأن المأمون أخذ البيعة لنفسه [١]. ويصل الصراع إلى زروته بعد مقتل الأمين ، وتتجسد المأساة بفصولها وخاصة بعد أن يذاع أن الأمين قد تنازل للمأمون حقناً للدماء ، وحافظاً على حق الإخاء

يقول في الفصل الثاني : [٢]

أبو الصقر [٣] :

أتيـت إلـيكم جنـد بغـداد راثيـا فما جئت مدفوعاً ولا جئت مرشداً

أتيـــتكم أرثـــي أميـــراً أحـــبكم أتيـــتكم أرثـــي الأمـــين محمـــداً

وقالوا أحب اللهو لا بل مملك أحـب العـلا والمجـد حـراً مسـوداً

وقالوا غواه الملك هل تعلمونه تنـــازل للمـــأمون أمـــس وأَشْـــهَدا ؟

الأول : تنازل المأمون ؟

الثاني : أشهد قومه ؟

الأول : لقد مات مظلوماً إذا كان أشهدا ...

أصيخوا أصيخوا .. للحديث بقية

أبو الصقر : أصيخوا لقولي جند بغداد جيداً

فمـا كـان بـين التـوأمين خصـومةٌ ولكـــن إخـــاءٌ بالمصـــالح أفســـدا

تنازل حقناً للدماء .

ويظهر المؤلف خيانة البطانة والحاشية في أكثر من موضع من المسرحية منها منها يقول : [٤]

---

(١) الديوان /١٦٣/٢ .

(٢) الديوان / ١٧٧/٢ .

(٣) أبو الصقر : داعية لابن المهدي .

(٤) الديوان /١٧٤/٢ .

الأمين : **هل نصيرٌ ؟**

أبو الصقر : **مولاي ما فات لا يعودُ**

الأمين :

أُحســـها وحشـــة المنايـــا ســـهامها اليـــوم لا تحيـــد

كيف أخي الآن ؟ أهو حيٌّ ؟

أبو الصقر : **نعم**

الأمين : **ألا قبحَ البريد !**

فقـــولهم كلمـــا ســـألنا مـــات وثـــارت بـــه الجنـــود

أبو الصقر :

بـــل قـــبح الله قـــوم ســـوءٍ بهـــم هـــوى ملكـــك العتيـــد

فمـــا وزيـــرٌ ولا مشـــيرٌ إلا المرائـــي أو الحســـود

ويقول في موضع آخر[1]:

الأمين :

أيـــن أنصـــاري وجنـــدي أيـــن أعلامـــي وجيشـــي ؟

كـــل ســـيف ســـيدق الآ ن .. مســـماراً بنعشـــي !

كما يوضح طمع المهدي في الحكم ؟ مستفيداً مما حدث بين الأمين والمأمون:[2]

أبو الصقر:

أميركم المهديُّ يا قوم فاقصدوا إليـه تـروا عـزا ومجـدا وسـؤددا لالـــــــــــــــــــه

وهـا هـو ذا فـي القصـر يبـدأ ليملأهـا عـدلا ورأيـا مسـدداً حكمـــــــــــــــــــه

(١) الديوان /١٧٦/٢ .

(٢) الديوان /١٧٨/٣ .

بل إنه المهديُّ عمم الذي قضى وللعـمُّ أولـى مـن أخ غـدره بـدا

فمـن يتـرك المهـديّ ضـل سـبيله ومن يقصد المهدي في قصره اهتدى

والمسرحية في جوهرها تصوير للخلاف القائم والمستمر بين العرب على الحكم وولاية العهد ، وعدم اتحاد كلمتهم ، وتفكك صفوفهم وموقف الدخلاء والمستفيدين من هذا الخلاف .

وكأن الكاتب لا يصور عصر الأمين والمأمون ، بل يصور عصرنا الحاضر وواقعنا المعاصر .

وقد أخذ الكاتب حوادثه من التاريخ المسند الموثوق ، ولم يتصرف إلا في التفاصيل التي تعينه على تصوير الجو التاريخي ، أو على رسم الشخصيات وبعثها حية . ولجأ إلى بعض وسائل التأثير الخارجية كوصف الرياض والحدائق والقصور[١] ، ومجالس الطرب والغناء والسمر[٢] .

ولم يتجنب المؤلف تصوير المواقف الفاجعة ، والحوادث الدامية على المسرح كمقتل الأمين وإرسال رأسه على صينية من الذهب لأخيه المأمون ، وهي من المواقف التي تثير الأسى والحزن وكان تعبير الكاتب عنها معبراً ومؤثراً يقول على لسان المأمون بعد أن رفع الغطاء وظهرت له رأس أخيه الأمين :

المأمون : [فزعاً ، كأنما يخاطب نفسه] [٣]:

رأس الأمين أخي! يا سوء ما صنعوا بـه وبـي! إن هـذا شـرُّ إهـداء

قـد أسـخطوني بأشـقى منظـر بشـع من حيث قد حاولوا وُدّي وإرضائي

مـا ضـر لـو تركـوه فـي مباذلـه في روضة من رياض اللهو غناء

أخ علـى بعـده قـد كـان يجمعنـا عهـد الـولاء وأحـلام الأشـقاء

(١) الديوان /١٦٤/٢ ، ١٧١ .
(٢) الديوان /١٥٩/٢، ١٩٧ .
(٣) الديوان /٢ /١٨٢ .

أب كـــريم رأى تقســـيم دولتـــه فخـــص أولاده منهـــا بـــأجزاء

ماذا أريد ؟ أأحوى الملك مجتمعاً وأنت في القبر ملقى بين أشلاء

ثالثاً : رموز النضال القومي والوطني : -

وتأتي مسرحية " معركة رشيد "[1]لتعبر عن النضال الوطني والقومي الكائن في كل زمان ومكان ، وفيها يعرض المؤلف لفترة حاسمة من تاريخ مصر الحديث ، في أوائل القرن التاسع عشر[2] ، حين غزا فريزر " قائد الحملة الإنجليزية " مصر بهدف أن تتخذ منها طريقاً إلى الهند ، بعد أن تصبح مصر تابعة لبريطانيا ، ولم تكن تلك هي الحملة الأولى ، فقد سبقتها حملة "نابليون بونابرت " في أواخر القرن الثامن عشر ، وأوائل القرن التاسع عشر حين غزاها نابليون ، وطارده الجيش الإنجليزي بقيادة " نيلسون " يقول عامر على لسان فريزر :[3]

فريزر :

ونحـــن لنـــا هنـــا غـــرضٌ جديـــد حضـــرت لكـــي أحققـــه بنفســـي !

ويكوب[4]: **وما هو يا فريزر ؟ قل أرحني .**

فريزر : **طريق الهند يا ويكوب فاسمع**

لقـــد نـــزل الفرنســـيون مصـــرا وقائـــدهم إليهـــا قـــد تطلـــع

فلمـــا زال نـــابليون عنهـــا وقلنـــا مـــا لـــه أمـــل فيرجـــع

وقلنـــا هـــذه مصـــر اســـتقرت كمـــا تختـــار واليهـــا وتخلـــع

(١) الديوان /٢ /٢١١ .
(٢) زمن المسرحية / آخر مارس عام ١٨٠٧م .
(٣) الديوان /٢/٢٣٢، ٢٣٣ .
(٤) من قواد الحملة .

رأينـــا لقمـــة كـــم نشـــتهيها وقـــد ســـاغت لتمضـــغ أو لتبلـــع

ويكوب [1]:

نعـــم هـــي فرصـــة الأيـــام لاحـــت نحقـــق عنـــدها الحلـــم القـــديما

.....

فريزر :

وبعـــدها ســـوف تغـــدو مصـــر تابعـــة على مدى الدهر للتاج البريطاني! [2]

والمسرحية في جوهرها تستند إلى حوادث التاريخ المسند الموثوق ولم تتصرف إلا في التفاصيل التي تعين المؤلف على تصوير الجو التاريخي ، وتعين في الوقت نفسه على خلق الحركة الدرامية ،واستخدام عنصر التشويق والمفاجأة .

وكان الهدف الأساسي للمسرحية إظهار بطولة الشعب المصري وشجاعته وسماحته في التعامل مع محتله ، ودفاعه عن أرضه ، مستنداً إلى إيمانه بالنصر على الطغاه ؛ لأنه يدافع عن حق بلاده في الحرية والاستقلال ، فيدافع ويصمد أمام عدو فاقد عدة وعتاد بغير ذخيرة ولا سلاح ، وقد ظهر هذا الهدف في أكثر من موضع من المسرحية يقول عامر [3] في الفصل الأول على لسان أحد الجنود المصريين :

الثاني :

نحـــن نـــدافع عـــن أرضـــنا لتحقيـــق آمالنـــا الغاليـــه

وإيماننـــا يصـــنع المعجـــزات ويقضـــي علـــى الظلـــم والطاغيـــه

ويقول على لسان فريزر في الفصل الثالث [4]:

فريزر :

---

(١) من قواد الحملة .

(٢) الديوان /٢/٢٣٦.

(٣) الديوان /٢/٢١٤ .

(٤) الديوان /٢/٢٣٦ .

إنـي لأعجـب مـن رشـيد وصـبرها ومقـــاتلين تقـــدّموا لكفـــاح

ضـعفاء قـد صـمدوا لجـيشٍ فـاقهم عـــدداً بغيـــر ذخيـــرة وســـلاح !

كما تظهر جبن العدو وخوفه ورعبه من شعب رشيد وجرأته يقول عامر على لسان فريزر مخاطباً قواد حملته[1] :

فريزر :

نعـــم جبنـــاء أنـــتم مـــن ســـواكم رمـــاني اليـــوم فـــي هـــمٍّ وكـــرب ؟

جنـــود الإنجليـــز جنـــود لهـــو وليســوا فـي القتـال أسـود حـرب

يلـــوذ بغيـــره مـــنهم جبـــانٌ ويظهـــر بأســـه فـــي حفـــلِ شُـــرْب

ويكوب :

ونحـــن اليـــوم نخشـــى فـــي رشـــيد جنـــود كتيبـــةٍ وهيـــاج شـــعب

– وقد طعم المؤلف تلك الأحداث البسيطة بعناصر خالية ، لا تتعارض مع روح التاريخ ، ولا مع منطق الحياة الإنسانية ، فابتكر شخصية المقنع التي كانت تظهر وتختفي وتأتي بعجائب خيالية ، واستخدمها في تحريك الأحداث وإثارة التشويق وإعداد المفاجآت ، ومن هذه المفاجآت تنبيهه للجنود المصريين من زحف جيش الإنجليز وقد بدأ هجومه ليلاً والناس نيام يقول عامر[2] :

المقنع :

يـــــا أيهـــــا النـــــائمون هبـــــوا .. ألا تســـــمعون !

قافلـــــة مـــــن الجنـــــو د .. عِـــــدُّها ســـــتمائه

الآن تمشـــــي نحـــــوكم فـــــي خطـــــواتٍ هادئـــــه

(١) الديوان /٢/٢٣٢ .
(٢) الديوان /٢/٢٢١ .

يشـــــبه زحـــــف القافلـــــه زحـــــف الأفـــــاعي الهائلـــــه

مـــــوج مـــــن الأجســـــام يـــــدفع فـــــي الظـــــلام

قمصـــــــانه البيضـــــــاء لـــــم تخفهـــــا الظلمـــــاء

كـــــــأنهم أشـــــــباح لـــــم يهـــــدها مصـــــباح

هـــــذا الهجـــــوم الليلـــــي قـــــد جـــــاءكم بالويـــــل

قم يا أخي هل تسمع ؟

أحد الجنود [يستيقظ] **من أنت ؟**

المقنع [بصوت رهيب] **المقنع !**

[يخرج المقنع مسرعا يدخل مراد]

مراد[1] :

مـــاذا ســـمعت ؟ مـــن المنـــا دي ؟ فليهـــــب النـــــومُ

أبصـــرت فـــي الليـــل المقنـــع .. أم ترانـــــي أحلـــــمُ ؟

[يدخل جندي مسرعاً]

الجندي : **الإنجليز ، الإنجليز !**

مراد : **وأين ؟ قُلْ ما تَعْلمُ .**

الجندي :

كـــــان المقنَّـــــعُ هاهنـــــا مـــــن لحظـــــةٍ يـــــتكلم

مراد : **أرأيته ؟**

الجندي : **شبحٌ رهيبٌ في الظلام مجسَّمُ**

(١) مراد : قائد الحامية .

أبصـــــــــرتهُ ، وســـــــــمعتهُ يـــــدعو .. وإنـــــي اقســـــم

ويقـــــول : هبـــــوا ، أســـــرعوا إن العـــــــــدوَ ســـــــــيهجم

والآن يمشـــــي فـــــي المـــــزار ع والظـــــــــلام مخـــــــــيم

وقد كتب عامر هذه المسرحية عام ١٩٦٦م أي قبل النكسة أو الهزيمة النكراء بقرابة عام فكأنه يرسلها إنذار لأمته بالنكبة النكباء قبل وقوعها بعد أن دلت عليها مقدماتها ، وكأن عامر يدق أجراس الخطر وينبه حكام مصر إلى نذر الكارثة ، وكأنه استشراف للمستقبل واستشفاف وتنبؤ بما يحمله من وقائع وأحداث يمثل جزءاً من تاريخ كل أمة .

ويقـــــول : هبـــــوا ، أســـــرعوا إن العـــــــــدو ســـــــــيهجم

وهنا نرى عامر وقد ألبس الماضي بالحاضر أو أسقطه عليه مستخدماً الإشارات التاريخية المتوهجة لإبراز المفاهيم والقيم السياسية والاجتماعية التي يحرص على إبرازها .

وهكذا استطاعت شخصية المقنع أن تحمي رشيد وأهلها ، وتدافع عن بلادها وتحقق النصر والفوز على أعدائها ، ويصبح المقنع منقذاً لبلاده وخاصة بعد أن استجاب أهل البلاد لنصحه وإنذاره .

يقول[1]عامر على لسان طاهر[2] :

طاهر :

لقـــــــد أنقـــــــذ الحمـــــــى وكـــان فنـــاءُ الجـــيش ضـــربة لأزم

تنَّبـــه فـــي الحمَّـــاد للزحـــف قادمـــاً فـــأيقظ مـــن حراســـنا كـــل نـــائم

أخـــذنا ســـلاح الإنجليـــز غنيمـــة ولـــولاه كنـــا الآن بـــين الغنـــائم

(١) الديوان /٢ /٢٢٤ .
(٢) العمدة .

ويقول على لسان طاهر في موضع آخر مخاطباً ابنه محسن[1] :

طاهر :

شخصـــــــــــــــــــية بحـــديثها قـــد ســـارت الركبـــانُ

ومـــدافع بـــالحق عـــن أوطانـــه وبمثلـــــه تحـــــرَّر الأوطـــــان

بـالأمس قـد صـد الكتائـب وحـده أفهمـــــــــــــــــــت ؟

محسن : **قالوا إنه شيطانُ**

طاهر : **جهلوا حقيقته**

محسن : **وما هي يا أبي ؟**

طاهر : **بالأمس أثبت أنه إنسانُ**

محسن : **عجباً ، وكيف ؟**

طاهر :

حمـــــى المعســـــكر كلّـــــه ودعـــا فهـــب لصـــوته النعســـانُ

وأتـــى بأخبـــار العـــدو دقيقـــة ســـبع البرُمُبِـــة .. مـــا لـــه أَعـــوان

لـولاه كنـا اليـوم فـي أيـدي العـدا أســرى وعمــت دارنــا الأحــزان

ونجح المؤلف في رسم شخصية محسن بعيدة عن النضال والمقاومة وبلده في حالة حرب ومقاومة والعدو محاط بها من كل جانب .

طاهر : **رشيد ثارت وكل الشباب فيها تطَّوع**

لكـــي تـــذود عـــن الـــدا ر .. شـــعبها قـــد تجمـــع

يجمعـــــون أمـــــا وطفـــــلاً بهـــــا وبيتـــــا ومصـــــنع

هـــــذا يجـــــرد ســـــيفاً وذاك يطلـــــق مـــــدفع

(١) الديوان/٢ / ٢٢٩ .

وأنـــت فـــي الـــدار بـــاقٍ ومـــا خرجـــت لتـــدفع

إلـــى متـــى أنـــت فـــي النـــوم غـــارق .. تتمنـــع ؟

وتحـــت ســـتر الـــديباجي فـــي حانـــةٍ تتســـكع ؟

اظهـــر ، فـــدافع وحـــارب كـــن يـــا أخـــي كـــالمقنع ! (١)

ويقول على لسان إبراهيم :(٢)

إبراهيم : **أماه ، محسن ليس يعينه .. سوى شهواته**

ولقـــد ســـمعت بأنـــه بـــالأمس فـــي ســـهراته

مـــازال يصـــخب ممعنـــا فـــي اللهـــو بـــين لداتـــه!

وتظهر لنا المفاجأة في نهاية المسرحية بأن المقنع ومحسن شخصية واحدة ظهرت بصورة تختلف عن أصلها . يقول المؤلف على لسان السلانكي حاكم رشيد :(٣)

هـذا المقنـع ذاتُـهُ هـو محسـنٌ فاكشف قناعك يا جمال الوادي !

[المقنع يكشف القناع فإذا هو محسن ...]

ويبرز الكاتب رسالة الأنبياء ضارباً المثل بعيسى عليه السلام – وهي الدعوة إلى السلام رابطاً الدعوة بأن السلام لكل زمان ومكان ، لا لزمن الرسالة فقط يقول على لسان المقنع مخاطباً فريزر :(٤)

المقنـع : **لقـد تعـوذتَ بالصـليب ولكنَّـك لـم تحتـرم نـداء الصـليب**

---

(١) الديوان /٢ /٢٢٨، ٢٢٩ .
(٢) الديوان /٢ / ٢٣١ .
(٣) الديوان /٢ / ٢٥٢ .
(٤) الديوان/٢ / ٢٣٤، ٢٣٥ .

هــل دعــاكم إلــى الســلام قــديماً أم دعـاكم إلـى الـوغى والحـروب ؟

طلــب الرحمــة المســيح إلــيكم مـا دعـاكم إلـى اغتيـال الشـعوب !

ويضرب المثل بمعركة النصر التي وقعت على أرض رشيد والتي أصبحت مقبرة للغزاة ، لتصبح مثلاً باقياً على مر الزمان لكل وطني يحب أن يحافظ على بلده ووطنه وأرضه فيضحي من أجلها بالغالي والنفيس ، ولا يضن بروحه ولا بحياته فداءاً لها . يقول المؤلف على لسان أبطاله[1] :

طاهر :

رشــيد لقــد نلــت نصــر الإلــه وأصـــبحت مقبـــرة للغـــزاه !

السلانكي :

معركـــة النصـــر علـــى الأيـــام جـــــــدُّ حاســـــــمه

تبقـــــى لأجيـــــال علـــــى مـــــر الزمـــــان قادمـــــه

وسيظل يذكر التاريخ لرشيد وأهلها ما فعلته في الزود عن حياض مصر كلها ، فلا أحد يستطيع الدفاع عن البلد مثل أصحابها ، فهم وحدهم القادرون عن الدفاع عنها وحمايتها .

يـا سـادتي قـد تـم نصـرٌ رائـعٌ والفضـــل للأبطـــال والقـــوّاد

ذادت رشـيد عـن الـبلاد ودافعـت بـــالحق يـــوم كريهـــة وجـــلاد

وســينقل التــاريخ عنهــا فــي غــد مـا سـطرت يـدها مـن الأمجـاد[2]

ويقول في موضع آخر على لسان السلانكي :[3]

(١) الديوان/٢ / ٢٤٥ .
(٢) الديوان/٢ / ٢٥١ .
(٣) الديوان/٢٥٥ .

لقد تم نصر الله والفتح للحمى وما كان إلا خائفاً يترقب

وهذي رشيد قد فدت مصر كلها بوقفتها للهول والعود أصلب

تعاون فيها الجيش والشعب ساعة تراوح فيها النصر أيان يذهب

وقدم كلّ روحه وحياته ليسلم قدسيّ من الأرض طيب

تساوت فتاة في الوغى وعقيلة وذاد شباب عن حماهم وشُيَّب !

ويؤكد المؤلف على دور الخيانة في النصر والهزيمة[1] قائلاً عن قطان: المقنع :

هذا أسير الشعب هذا الخائن هذا المدين لكمُ لا الدائنُ

هذا الذي قد راسل الأعادي ليضرب الذلَّ على البلاد

ويأتي كاتب المسرحية بما يريد أن يثبته في مسرحيته هذه من أن مصر أصل الحضارة وكانت دائماً وأبداً أرض الأمن والأمان تدافع عن شعبها وتتغلب على أعدائها ، ولما اعتراها الضعف والوهن بعد القوة والعزة ، وأصبح لغير أبنائها من مماليك وأتراك حق أبنائها من مناصب وحكم ، وطمع فيها كل غريب عن أوطانها ، أصبح من حق فلاحيها وأهليها أن يفكروا في أن يستعيدوا مكانتها بشتى الطرق والوسائل ؛ لذا فقد رسم المقنع خطته وفق ما رآه ، لينهجها في مصر كل جيل معقب .[2]

والمسرحية في جوهرها ، تصوير صادق لفكرة الصراع بين الشرق والغرب ، وموقف الغرب المستعمر الغادر ، من الشرق الوادع المسالم ، كما أنه تنديد بالاستعمار والمستعمرين ، ودعوة للوطنيين للاتحاد والتعاون لطرد الدخلاء .

والحوادث في هذه المسرحية ، تتحرك بنشاط وقوة ، فمؤلفها يختار المادة التاريخية ، ويضيف إليها من مستنزلات الهامة ، ما يساعده على رسم صورة حية

(١) الديوان/٢ / ٢٤٥ .

(٢) الديوان/٢ / ٢٥٥ ،٢٥٦، ٢٥٧ .

، لتلك الفترة الحرجة من تاريخ الشرق الإسلامي ، وهو يعمد إلى استحثاث عجلة الزمن في المسرحية ، حتى يصل إلى الغاية المتوخاة ، ويبرز لنا انتصار الشرق على الغرب في أبهى حلة ؛ ولذا نراه يسقط الحشو ، ويتجنب الاستطراد والتطويل فيقدم الحادثة في صورتها الممثلة المجسمة .

وقد اعتمد على بعض الحيل المسرحية ، لتوفير عنصري التشويق والمماطلة اللذين يؤديان إلى تنبيه الجمهور للحوادث في لهفة وتطلع ، فاعتمد على تنكر محسن ، وأخفى سره إلى آخر المسرحية .

ولكنه حاول أن يحافظ على منطق التاريخ ومنطق الحوادث والشخصيات ، واستطاع أن يقنعنا بصحة الجو التاريخي وتسلسل الحوادث وأخذ بعضها برقاب بعض ، وارتباطها بروابط وثيقة من السببية .

وتعتبر ملحمة الجلاء[1] قصة شعرية جديدة تروي كفاح الشعب في مصر منذ ثورة ١٩٥٢م ، وكيف تم على يديه جلاء الإنجليز عن أرض الوطن ، وصد العدوان الثلاثي عن البلاد في أخريات عام ١٩٥٦م .

ويعتبر الزمن الذي استغرقته الملحمة دليل لاشك فيه على اتصال الماضي بالحاضر ، وعلى تأثر اللاحق بالسابق ، ركز فيها المؤلف على صورة الماضي المتوهج الناضر المنتصر ، وذكَّر الجيل الجديد بأحداث بلاده ، وماكابدته من صعاب ، وكيف وقفت أمام محتليها ، مطالباً إياهم بألا يكونوا أقل من أجدادهم وسابقيهم .

والملحمة تشتمل على ثمانية فقرات ، تضمنت كثيراً من المعلومات الهامة والحواشي المفيدة ، وعناوينها كما يلي :

١ – أمير الشعراء	٢ – تجديد الشعر
٣ – تجديد العروض	٤ – الملاحم والمسرحيات
٥ – غزوة القصة في الشعر العربي	٦ – قصة الجلاء
٧ – موضوع قصة الجلاء	٨ – كلمة أخيرة

(١) الديوان/٢ / ٢٩٦ .

وقد خص عامر ديوانه بالفقرة السادسة " قصة الجلاء " وهي قصة منظومة في بحر خماسي التفعيلات ، من الكامل ، وهو من أسهل البحور نظماً ، وأقدرها على استيعاب الموضوعات المتصلة ، وأسماء الأشخاص والأماكن .

والقافية تتغير فيه أصلاً كل بيتين ، ولكن ليس هذا قيداً ، فهي أحياناً تزيد إلى ثلاثة أبيات ثم هي أحياناً تسترسل إلى أكثر من ذلك ما شاء لها الاسترسال ، ولن يكون ذلك إلا مجاراة للنغم الجليل الذي استساغته الأذن العربية على مر العصور ، ففخامة الشعر العربي في فخامة موسيقاه ، وهذه الفخامة في الموسيقى آتية من ناحية القافية ، وما يحشد لها من ألوان النغم ، وما يشد لها من أوتاره .....

والبحر بعد ذلك يستوعب الحوار استيعاباً تاماً ، كما يستوعب الوصف ، والانتقال ، والتسلسل المنطقي والسرد القصصي ، والأسماء القديمة والحديثة على السواء .

ويمكن أن يقال في إيجاز إن قصة " الجلاء " قد نظمت في بحر مبتكر، لا يبعد عن أصول العروض العربي ، ولا يكاد يختلف عن نظائره في القصص العالمية الكبرى .

والملحمة تشتمل على خمسة عشر فصلاً في أكثر من ألفين من الأبيات . وعناوينها كما يلي :

١ – آباء وأبناء
٢ – ثورة الشباب
٣ – يوم القنطرة
٤ – وصية الشهيد
٥ – ثمن الجهاد
٦ – عبث الشباب
٧ – القيم المنهارة
٨ – حديث الفتى المرموق[1]
٩ – لغة السلاح
١٠ – جيل ينقضي
١١ – عهد الإرهاب
١٢ – متطوع في فلسطين
١٣ – حريق القاهرة
١٤ – نداء مع الفجر
١٥ – الجيل الصاعد

(١) الذي كان له الإهداء ، وورد ذكره في هذه القصة .. " ع " .

وقد نظم المؤلف القصة وهو ينظر إلى سلسلة طويلة من الأحداث ، استغرقت من الزمن أكثر من عشرين عاما ، وقد شهد بعضها بنفسه ، وعرف بعضها الآخر ، مما كان يجري حوله من أمور الناس والحياة .

والملحمة تتألف من مجموعة من الخطرات التي يضمها إطار شعوري وفكري واحد هو يقين الشاعر من انتصار الحق العربي مهما بدا الميزان في بعض الفترات مائلاً لصالح الخصوم ، وفي داخل هذا الإطار العام تستقل كل خطرة بكيانها الخاص المنفصل عن بقية الخطرات والمرتبط معها في نفس الوقت بهذا الإطار العام .

ومن هذه الخطرات " متطوع في فلسطين " (١) .

جلسوا إلى نارٍ هنالك في الربيع على شفير الخندق

يتحدثون حديثهم من قبلُ .. فعل الهامس المترفق

قال الفتى المرموق:ها قد ضمنا يا صحب ميدان القتال

الجيش زهرته بفالوجا .. وجيش الإنجليز على القنال

تمت مكيدتهم ، وصرنا والعدوّ أمامنا ووراءنا

لم يقصدوا والله إلا سحقنا .. فمتى نرى أعداءنا ؟

إني لمستُ على الطريق .. من الخليل ، لبئر سبع

جُبْنَ اليهودِ وذُلَّهُمْ .. لا تعجبوا .. ليس اليهود هم العِدا

الغربُ مَلَّكهُمْ فلسطين العزيزةَ .. إنه سببُ الشّقا

هو وعد بلفور البعيد وعهد روز فلت القريب تحققا

يتحدث المؤلف في هذه الفقرة عن القضية القديمة المتجددة عن مأساة العرب في فلسطين ، موضحاً كيف استطاع اليهود أن يستغلوا كل الاتجاهات لصالحهم " حتى انتهى الأمر بالإعلان البريطاني بأنها ستسحب قواتها من فلسطين وتنهي

(١) الديوان /٣٠٢/٢ .

انتدابها في ١٤ مايو سنة ١٩٤٨م ليعلن اليهود من تل أبيب في اليوم التالي ١٥ مايو سنة ١٩٤٨م إنشاء دولة إسرائيل ، وبعد ١٦ دقيقة أعلنت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية اعترافها بإسرائيل وتلتها حكومة الاتحاد السوفيتي ، مما يكشف عن أبعاد التواطؤ بين قيادات هذه الدول المختلفة وبين القيادة الصهيونية اليهودية ، فشبت الحرب بين اليهود والجيوش العربية لتنتهي بالمأساة المعروفة ، حيث أصبح العرب الفلسطينيون لاجئين لا موطن لهم ولا مأوى ، وبعد أن قدموا آلاف الضحايا في الحروب المستمرة بينهم [١].

وتأتي ملحمة " مصر المنتصرة "[٢] من وحي الحرب في أكتوبر لتصور تاريخ أمة وحاضرها ومستقبلها . بدأها المؤلف من عهد عرابي وكفاحه من أجل البلاد ، وموقف الخديوي ، ومعركة التل الكبير وهزيمته ، ودور الزعيم مصطفى كامل ، وكيف أنه كان ومازال مثلاً حياً لكل شاب ، يستطيع أن يفجر قضية بلده ويعبر عنها يقول: [٣]

قام في مصر فتىً .. غضُّ الإهاب يطلب الحقّ ويقضي ما وجب

مصطفى كامل..يدعو في الشباب وجد المنبر خِلْواً .. فخطب

ذعر الغاصب .. والشعب استجاب أملٌ من خير آمال العَرَبْ

إنه في مصر .. رمز الوطنية والذي فجّر بركان القضية !

وينهي عامر الفصل الأول من الملحمة بحديثه عن ثورة الثالث والعشرين من يوليو .

ويبدأ الفصل الثاني من الملحمة باختيار الرئيس جمال ليكون رمزاً للثورة ويعدد إنجازاته ، مذكراً بماضي البلاد وما أصابها من مصائب الاحتلال ، موضحاً أن الماضي يجب أن يكون عظة وعبرة ، نستفاد منه ، ونستوضح منه التجربة

(١) راجع / الإسلام في الأدب العربي المعاصر / د / إبراهيم عوضين /١٩٧٨م/٣٥٩ .
(٢) الديوان /٣٠٧/٢ .
(٣) الديوان / ٢ /٣١٣ .

والخبرة ، وعدم العودة إلى أخطائه ، فالاستعمار هو هو ، ولكن بأشكال مختلفة وطرائق متعددة .[١]

كـــم بمصـــرٍ نـــزل المســـتعمرون جـــاء بونـــابرت .. حينـــاً ..ورَحَـــل

ثـــم جـــاء الـــدخلاء المعتـــدون ومضـــوا فـــي ثـــوب خـــزي وخجـــل

فلمـــــاذا جـــــاء قـــــومٌ آخـــــرون ما لهم في مضرب الذّل .. مَثَلْ ..

حـــزب صـــهيون .. لمـــاذا أقبلـــوا ؟ مـــا هـــو الماضـــي ؟ ومـــا المســـتقبل ؟

وينهي الفصل الثاني من الملحمة بموت جمال عبد الناصر !

ويبدأ الفصل الثالث ليعبر من خلاله عن أعظم حروب القرن العشرين – السادس من أكتوبر ، العاشر من رمضان – بدر العصر الحديث . وليوضح أن العرب ليسوا سادة الخطب والكلمات ، وإنما هم سادة الحرب إذا ما تعلق الأمر بالحرية والكرامة ويبين كيف أذهل هذا الانتصار الباهر العالم ، وأعاد العسكريون في كل العالم حساباتهم " وكم من خبير عسكري لم يستطع أن يخفي دهشته بعد أن ظن أن الإقتحام المصري لخط بارليف لم يكن ليتم إلا بسلاح نووي ، ذلك الخط الذي وصفوه في إسرائيل بأنه " مقبرة الجيش المصري والصخرة التي سوف تتحطم عليها عظام المصريين " ثم وصفوه بعد ٦أكتوبر بأنه " قطعة من الجبن كثير الثقوب "[٢] .

فكان حقاً عليهم أن يراجعوا أنفسهم محاولين الوقوف على مستوى الإعجاز القتالي لقوى المؤمنين .

يقول عامر :[٣]

كم سمعنا المدَّعى بالأمسِ يكذب : مـــا لإســـرائيلّ جـــيشٌ يقهـــر !

---

(١) الديوان / ٢ /٣١٨ .

(٢) انظر / مائة نتيجة لحرب السادس من أكتوبر / محمود محمد أحمد المصري /ط/ الأولى/١٩٧٩م / ط /مركز النيل للإعلام /١٢ .

(٣) الديوان / ٢ /٣٢٢ .

ثـمّ ولّـى . أرنبـا مـن بعـد أرنـبْ منتهـى آمالهـا .. لـو تؤسـر ..

خـط بـارليف هـو الجـبن المثقـب بـات فـي مخلـب ليـثٍ .. يعصـر

هـا هـو الجيش .. بعين الله .. يعُبـرْ هاتفـاً ، منتصـراً : " الله أكبـر " !

وفي لوحة فنية رائعة يرسم شاعرنا عامر بحيري بريشة أبياته الشعرية لوحة رائعة تستمد ظلال ألوانها من وقائع الحدث العظيم ، ومشهداً درامياً تتتابع فيه الحركة المنسجمة مع الكلمة المعبرة ، والإيقاع السريع الملائم لحكاية الحدث .

وقد ربط الشاعر بين معركة العاشر من رمضان ومعركة بدر الظافرة ، مستلهماً أحداثها وما وقع فيها من تأييد الله ، وتثبيت الملائكة للأبطال المجاهدين ، والرعب الذي زلزل الكافرين ، وبين معركة " بدر المعاصرة " فقد حظيت بعون الله ومدد السماء الذي أمد الله به المجاهدين في سبيله الصادقين عهده ، وهم يقدمون حياتهم في كرم بالغ وهم يرون الموت يقدم عليهم من كل جانب . يقول [1]:

غـزوةٌ صـادقةٌ فـي رَمَضَـان تتنـادى : " يـا لبَـدر "[2] الظـافره !

بينمـا بـارليف .. مسـلوبُ الأمـان فاجأتـه أُسْـدُ غـاب كاسـره

جُلِّـل الأفـق عليـه بالـدخان وعلـى البـاغي .. تـدور الـدائره

نـزل الهـول بـه مـن كـل جانـبْ هكذا فَرّت من الجحر .. الأرانب

وسيظل شهر رمضان خير شاهد على هذه المعركة العظيمة ، وخاصة العاشر منه ، فقد وضع هذا التاريخ حدا فاصلاً بين عهدين في تاريخ الصراع بيننا وبين إسرائيل ، وصار عالم ما بعد أكتوبر يختلف كثيراً عن عالم ما قبل أكتوبر .

---

(١) الديوان / ٢ /٣٢٢ .

(٢) وقد أطلق على معركة العبور " بدر " تيمناً بموقعة بدر .

ويذكر شاعرنا في قصيدة " صانع القرار "[1] في الجزء الأول من ديوانه أن اختيار الشهر والوقت كان من أسباب النصر ، فلم يتوقع العدو أن يحارب المسلمون وهم صائمون ، ولا في ليلة مقمرة ينمو القمر فيها أول الليل ثم يغيب آخره يقول :

وكان اليوم من رمضان صحوا ووجهُ البدر ما عرف السّرارا[2]

وقد صام العبادُ عن الدنايا وصلّوا فرضهم ودَعْوا جهارا

وقد كانت الروح الدينية واليقظة الإيمانية من أشد العوامل وأقواها دفعاً للجندي المصري المسلم ، بل كانت الدافع الأول فقد كان يحارب دفاعاً عن الحق ، ورداً على عداء معتدين وفي يقينه أن الله ناصره ومؤيده وحاميه فقد وعده ووعده الحق يقول :[3]

وإذا ما تم رضوان السماء عَمَرَ الإيمانُ .. حبّات القلوب

وإذا صح خروج المؤمنين رضي الله .. عليهم أجمعين

وهكذا أصبح العاشر من رمضان صفحة جديدة من صفحات التاريخ الإسلامي المشرقة ، ويوماً خالداً من أيام رمضان فأحرى بنا أن نقتفي آثار سابقينا ، ونخلد آثارنا ، ونربط حاضرنا بماضينا حتى يتحقق الأمل في استعادة كل شبر من الأرض ونرفع أعلام العزة والكرامة على كل بقعة من هذه الأرض الطاهرة التي دنسوها بأعمالهم المخزية ، يوم يسترد فيه الفلسطينيون حقوقهم المشروعة ، ويعودون مرفوعي الرؤوس والهامات إلى ديارهم وأهليهم ، فهذا هو النصر الكبير الذي لا نرضى عنه بديلا .

❁❁❁

(١) الديوان / ١ / ٣٥٩ .
(٢) السرار /ظلمة آخر الشهر .
(٣) الديوان / ٢ /٣٢٢ .

الفصل الثالث
رؤيته الفنية في استلهام التراث

يُعَدُّ عامر بحيري من شعراء العصر الحديث الذين درسوا القصيدة العربية القائمة على عمود الشعر في عصورها المختلفة ، وعرفوا مواطن القوة والضعف فيها ، ودرسوا كذلك المحاولات الجادة من شعراء العربية ، الذين حاولوا التجديد في الموضوع ، والتجديد في الوزن ، والتجديد في الرويّ والقافية ، ولم يقف عند هذا الحد من المعرفة ، بل تجاوزه إلى دراسة القصيدة الغربية ، والشعر الغربي بوجه عام ، وتذوق كل أولئك ، ثم انتهى إلى معالجة الشعر العربي ، معالجة لا تفقده روحه التي يقوم عليها، ثم هي تمده بألوان جديدة وروح جديدة .

ومن الطبيعي أن لكل شاعر رؤيته الخاصة وأسلوبه الذي ينم عليه فالأسلوب صورة صادقة لصاحبه ، ونتيجة طبيعية لمواهبه ، ولا يمكن أن يكون صادقاً ، قوياً ، ممتازاً إلا إذا استمده من نفسه وصاغه بلغته ، وعباراته ، دون تقليد سواه لأن كل أسلوب صورة خاصة بصاحبه تبين طريقة تفكيره ، وكيفية نظره إلى الأشياء وتفسيره لها ، وطبيعة انفعالاته ، فالذاتية هي أساس تكوين الأسلوب " والإخلاص في تصوير ما في النفس من فكرة واضحة أو عاطفة صادقة ، يجعل الأسلوب مثالياً متى توافرت للأديب هذه الوسائل البيانية من الوضوح لقصد الإفهام ، والقوة لقصد التأثير ، والجمال لقصد الإمتاع . " [1]

وبقدر ما في شعر الشاعر من أصالة خاصة وملامح متميزة يسهل التعرف عليه وتمييزه بين الشعراء الآخرين وهكذا كان عامر بحيري من الشعراء المتفردين المتميزين الذين يسهل التعرف على شعرهم .

وإذا كان عامر بحيري من الشعراء " المتميزين " بالنظر إلى شعره كله فهو أكثر تميزاً بالنظر إلى " تراثياته " بصفة خاصة إذ استطاع من خلالها أن يعايش قضايا أمته العربية بصفة عامة ، ومصر بصفة خاصة ، مصوراً معاناتها وآلامها وانكساراتها وانتصارتها .

---

(١) الأسلوب /أحمد الشايب / ط / الاعتماد بمصر / ط الثانية بدون /١٥٠ .

كما عبر عن كفاحها ضد المستعمر ، وكفاحها ضد الإقطاع والرجعية، وانطلق فيها انطلاقة الشاعر المشحون بالعاطفة ، المحب لشعبه ووطنه ، الفخور بما تحلى أجداده من روح البذل والفداء .

وسأحاول في هذا المبحث أن أستعرض طريقة عامر بحيري في تفاعله مع التراث على اختلاف مصادره من نواح متعددة :

الموضوعات ، الأسلوب ، الموسيقا ، التصوير .

أولاً : **الموضوعات** : –

كان اختيار شاعرنا لموضوعات تراثياته .. محكوماً بمدى قدرة هذه الموضوعات على إبراز الدلالات والقيم الاجتماعية والسياسية والإنسانية التي يحرص عليها ، ومن خلالها نستوضح رأيه بأنه يجب أن ننظر إلى التراث كقيمة قبل أن ننظر إليه كوقائع وأشخاص . والأديب لا يستطيع أن يعيش بمعزل عن مجتمعه ، ولكنه " حين يتأثر بالمجتمع إنما يعكس فهمه هو على هذا المجتمع . والأدب تصوير لهذا الفهم ونقل له . "[1]

لذلك اختار عامر بحيري من التراث ما استطاع أن ينمي به القيم والمبادئ والانتماء .

ومن الموضوعات التي انتصر لها الشاعر في تراثياته استشعاره خطراً يهدد كيان الوطن العربي كله ، والأمة الإسلامية وكان على ثقة أن الصهاينة قادمون إلى هذه الأرض المقدسة ، يقول[2] في قصيدته " النبي والمعركة " [3]:

هناك نادوا بصهيون الذي اندثرت آثاره وبكوا حزناً على الطلل

ولم تزل سورة الأَحقاد تدفعهم حتى استراحوا لوعد السارق الختل

نهدى فلسطينَ مكرَ السوء غاصُبها إلى شراذم من حافٍ ومنتعل!

(١) الأدب وفنونه / د / عز الدين إسماعيل /٤٤ .

(٢) الديوان /١/ ٤٦١ .

(٣) كتبها في ٣٠ مارس ١٩٦٨م .

اليـوم تمـرح فـي سـيناء لاهيـةً وتعتلـى ضـفَّة الأَردنَّ فـي جـذَلِ

وتـدخل المسـجد الأَقصـى بأَحذيـةٍ لشـرَّ حـزبٍ مـن الأَوغـاد والسَّـفل

قبـر المسـيح مـن الآثـار منتهـبٌ وتـاج مـريمَ بعـد الحلْـيِ فـي عطَـلِ

ومرتقـي العـز مـن نـور البـراقِ غـدا مرابط الخيل يا ذليَ و يا خجلي !

ويقول بعد أن تمكن اليهود من فلسطين [1]:

إلـى متـي تـذرعون الأَرض واسـعةً في خطو ملتجئ أَو باسم مغترب ؟

تـأْبى الكرامـة أَن تبقـى ديـاركمُ مُخيَّمـات ويُثـري كـل منتهـب

بلادكـم لـم تـزل تشـكو غيـابكمُ عنهـا وذلـك أَصـل الهـمّ والكـرب!

– ومـن الموضـوعات التـي شـغلت ذهـن شـاعرنا العروبـة والفصـحى فـراح يرددها في قصائد كاملة ، وبين ثنايا أبيات قصائده وكأنها خاطر يلح على ذهنه ويشغل فكره يقول : [2]

مجـدنا الخالـد ..أنـا عـربٌ خُلـص والكـون فـي حجـر الفطامـه

إن للفصـحى بيانـا فصَّـلَتْ آيـه بـين قصـيد ومقامـه

لقد كانت الأمة العربية أمة ينتهي إليها البيان وتجد فيها العلوم صدوراً منشرحة فهي تقبل عليها بطبيعتها وتقيم وزنا للعلماء حيث كانوا ، وكلما دخل هذا الدين بلداً اهتز فيه العلم وربا ، ونشأ فيه العلماء الفحول ، وعلت راية الحق ونال كل إنسان ما يستحقه بعمله ، وارتفعت الفروق فالعرب حملوا العدل الذي في دينهم

(١) الديوان /١/ ٤٠٠ .
(٢) الديوان /١/ ٢٣٣ .

إلى الأمم التي فتحوها ، وأثاروا فيها حب العمران والسعي في مناكب الأرض ، وصار هذا الدين نظاما للوجود يرجع الناس إليه في أمور الدنيا .[1]

ويشيد عامر بأخلاق العرب وفضائلهم وحضارتهم وأثرهم في حياة الناس بما هداهم إليه هذا الدين يقول : [2]

بَنْيَنَا من حضارتنا القصورا بناءً زاد بالإسلام نُورا

فأَذهلنا بمرآها الدهورا قصور المجد سامقةَ العلاءِ

***

وَأَمَّا الشرق فهو بنو أبينا ومن وُصلوا بنا نَسباً ودينا

سنجزيهم إِخاء ما حيينا ونحن لهم أَحضّ الأَوليـاء

***

فتحنا صدرنا لهمُ جميعا وكان فناءُ منزلنا وسيعاً

جعلناه لوافدهم ربيعا لحرّ الصيف أو برد الشتاء

***

أهبنا بالعروبة مؤمنينا فجاءُوا وحدةً مُتَساندينا

فلولا ردَّهم متفرقينا تخاذلهم لفازوا بالرجاء

ويربط الشاعر بين العروبة والإسلام والشرق وقضية فلسطين موضحاً أن

(١) انظر / الاتجاه الإسلامى / ١٨٤ .
(٢) الديوان /١/١٧٨ .

الأمة الإسلامية والعربية تواجه خطراً متفاقماً ومخططات ساعية إلى مسخ شخصيتها ، وتشويه دينها ، وتضيع ثقافتها ، وتبديد طاقاتها وثراوتها .
يقول عامر : (١)

لحن العروبة في إشراقة أَملٌ لواؤُه الشرق يوم المجد عاقده

بلوى فلسطين قد كانت له عظةً فالشرق بعدُ جميع القلب واحده

سلاحه مرهف الحدَّين منطلق لن يخدع الشرقَ بعد اليوم فاسده

***

ويابني العُرْب قد صحَّتْ عزائمكم والشرقُ من حولكم صحَّت عقائده

تكشف اليوم الاستعمار عن دخلٍ فليس من بيننا من لا يجاهده

لنوقعنَّ به أو يمض مرتحلاً صحَّ الجلاء وذلَّ اليوم ماردة

فلينهض الشرق ولتزحف كتائبه وليسمع الدهر ولتشد قصائده

ويهيب الشاعر بالأمة لأن تنهض وتتحد لتقف في وجه خصمها وعدوها ، وأن تتمسك بالإيمان والتضحية وتسلك منهج سابقيها من سيرة أجدادها .

يا أمة العُرب صونوا اليوم وحدتكم قد بات خصمكمُ يقظى مراصده

وحاربوه بإيمان وتضحية إن الأَبيَّ شريف القصد زاهده

صونوا حقوق بينكم في ديارهم إن الشباب على ما كان والده !

ويطول بنا المقام لو ذهبت أتتبع المضامين الفكرية في تراثيات الشاعر ، وأعتقد أننا في غناء عن هذا التتبع ، فقد عرضت كثيراً من هذه المضامين في الفصل الثاني من خلال عرض مصادره التراثية التي استرفدها واستقى منها شعره .

---

(١) الديوان /١/١٩٧، ١٩٨ .

ثانياً الأسلوب :

أول ما نلمسه في أسلوب شاعرنا أنه كان يضع الكلمات في مكانها من السياق بحيث لا يغني عنها غيرها .

وعندما ننعم النظر في نصوصه الشعرية ، نرى نمطاً مميزاً من الصياغة الفنية التي تتسم في الأعم الأغلب بالوضوح ، وشفافية التعبير ، والفصاحة ، ومجانبة الإغراب ، والابتعاد عن الغموض والتعمية والرمز والإلغاز .

ولا غرو فقد عالج موضوعات وقضايا فرضت تجاربها الصادقة على صياغتها مسحة جادة وأكسبتها سمواً محموداً ، وجاءت ألفاظها معبرة عن معانيها أبلغ تعبير " وللمعاني ألفاظاً تشاكلها ، فتحسن فيها وتقبح في غيرها."(١) ويجانب عامر الكلمات المهجورة ، فليس في قاموسه الشعري كلمة معجمية واحدة ، وإن حفل بالكلمات التراثية ، وهو في استخدام هذه الكلمات يراعي ما يمكن أن نسميه " بالوشيجة النسبية " .

– بين الكلمة والوعاء التراثي .

– بين الكلمة وموضوع " التراث " .

– بين الكلمة وطبيعة الشخصية (٢).

ففي مسرحية " خالد بن الوليد " (٣) نجده يرتكز على كلمة خالد بن الوليد المشهورة :

" لقد شهدت مائة زحف أوزهاءها وما بجسمي شبر الإ وفيه ضربة سيف أو طعنة رمح ، فلا نامت أعين الجبناء "

ولخصها في أبيات مسرحيته يقول على لسان خالد مخاطباً سيفه (٤):

يا سيفُ أَنت اليوم كلُّ عزائي وحدتكم أمضي ويبقى في مضاك مضائي

---

(١) عيار الشعر لا بن طباطبا / تحقيق محمد زغلول سلام / ط / المكتبة التجارية الكبري بالقاهرة / ١٩٦٥م / ٨ .

(٢) أنظر / التراث الانساني في شعر أمل د نقل / د/ جابر قميحة / ١٧٩ .

(٣) الديوان /٨٥/٢ .

(٤) الديوان / ١٥١/٢ .

قد كنت لي قلماً يخط صحيفتي بمـــداد نـــور لا مـــداد دمـــاء

.....

وشـهدت مـن عـدد الوقـائع كلهـا مائـــةً أغيـــر بهـــا علـــى الأعـــداء

لم تبق من جسدي الوقائع موضعاً لجديـــد طعـــن أو مزيـــد بـــلاء

.....

واليـوم يلقـي المـوت فـوق فراشـه مـــن كـــان يمـــلأُ ســـاحة الهيجـــاء

وكـذا تمـوت العيـر إن نفقـت فـلا قـــرت بـــذلك أعـــين الجبنـــاء!

- وسمة أسلوبية أخري تكاد تكون مطردة في " تراثياته" بصفة خاصة وهي تأثره بالقرآن الكريم ، واقتباسه من آياته وفي ذلك دليل على تشبع روحه بالقرآن الكريم .
- ويأتي الاقتباس أحيانا بالعبارة القرآنية بنصها ، وأحياناً بتضمن معناها .

فمن الأول قوله : (١)

واســتقام الضــحى وقــد كفــت السُــحبُ وجــفّ الثــري وغــيض المــاء
واســتوت ســاعة الوصــول علــى الجــود ى .. واستبشــرت بهــا البشــراء !

من قوله تعالى :

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْـرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٢).

ومنه قوله : (٣)

همـــت بـــه فـــي ســـورة الوجـــد كمـــا هـــم بهـــا
واســـتبقا البـــاب .. ولـــيس جـــده .. كلعبهـــا

---

(١) الديوان / ٢/٦٥ .
(٢) من الآية رقم (٤٤) من سورة هود .
(٣) الديوان / ٢/ ٧٣ .

قـــدَّت قميصـــه ولـــم يمـــس طـــرف ثوبهـــا
وألفـــيا ســـيدها بالبـــاب .. يـــا لخطبهـــا

من قوله تعالى :

* ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا .....﴾الآية [١]

*﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى ....﴾ الآية [٢]

وقوله [٣]:

وإلـى مـدين[٤] ..أخـاهم شـعيبا فهـو يـدعو للصـدق فـي كـل حـالِ

من قوله تعالى :

* ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [٥]

وقوله : [٦]

واقتربـــت لأجلهـــا الســـاعة وانشـــق القمـــر ...

من قوله تعالى : [٧]

*﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾

– ومن تضمين المعني القرآني :

قوله الشاعر : [٨]

وإذا الميـــت فـــي الأرض لقـــي مـــا درى كيـــف يواريـــه التـــرابْ

من قوله تعالى : [١]

(١) من آية رقم (٢٤) من سورة يوسف .
(٢) من آية رقم (٢٥) من سورة يوسف .
(٣) الديوان / ٢/ ٧٥ .
(٤) مدين تمنع من الصرف للعلمية والعجمة وهي هنا ظاهرة التنوين لضرورة الشعر .
(٥) الآية رقم (٣٦) من سورة العنكبوت .
(٦) الديوان /٨٢/٢ .
(٧) الآية رقم (١) من سورة القمر .
(٨) الديوان /٦٣/٢ .

﴿فَبَعَثَ اللهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾

ومنه قوله : (٢)

وأنيبـــوا إليـــه واســـتغفروه تجـــــدوا الله ربَّكمُ..غفـــــارا

ومن قوله تعالى : (٣)

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾

ومنه قوله : (٤)

قـال هـود لقومـه وهـو يـدعو : لـيس بـي مـن سـفاهة أو ضـلاله

من قوله تعالى : (٥)

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾

ومنه قوله : (٦)

فـرأى أخـرى الليـالي كوكبـا قـال : ذا ربـي علـى الكـون تسـامى

ورأي ليلـــة تـــمَّ .. قمـــراً بازغـاً ، فـي أفقـه شـق الغمامـا

ورأى الشمس وقد راحت ضُحى تلهـبُ الكـون ، وتصـليه ضـراما

قـال : ذا ربـي .. فلمـا أفلـت قـال : لا أرضـي مـن النـور الظلامـا

جـل شـأن الله ربـي ، إنـه خلـق الكـون سـويا فاسـتقاما

(١) الآية رقم (٣١) من سورة المائدة .
(٢) الديوان / ٦٤/٢ .
(٣) الآية رقم (١٠) من سورة نوح .
(٤) الديوان / ٦٦/٢ .
(٥) الآية رقم (٦٧) من سورة الأعراف .
(٦) الديوان / ٦٩/٢ .

ولـــئن وجهـــت وجهـــي ..فلـــه جـــلّ وجـــه الله بـــدءاً وختامـــا!

من قوله تعالى :

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ۞ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ۞ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ۞ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(١)

ومنه قوله : (٢)

فـــإن نســـيت ذاك إحـــداكما تـــــذكر إحـــــداكما الثانيـــــة!

من قوله تعالى :

﴿ ....وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى ... الآية) (٣) .

ومن سماته الأسلوبية قدرته البارعة على نظم القصيدة أو جزء منها فى سياق قصصي . والأمثلة كثيرة منها :

فصل " حديث الفتى المرموق" من ملحمة الجلاء .(٤))

نار على جبل الشريف توقدت ليلاً .. بظاهر منقباد
هل تلك نار الدفء فى ليل الشتا . أم أنها نار الجهاد
جمعت حواليها شباباً .. يفتدون بلادهم بدمائهم ..
كم ضاق ذرعهم بعيش الإنجليز .. وكم سعوا لجلائهم
يجدون فرصتهم وراء الليل فى ذاك المكان المنعزل

---

(١) الآية رقم (٧٦–٧٩) من سورة الأنعام .
(٢) الديوان /٢/١٥٠ .
(٣) الآية رقم (٢٨٢) من سورة البقرة .
(٤) الديوان /٢/٣٠٠ .

يتحدثون ، وسيمرون .. بما يميد له من الذعر .. الجبل!

❁❁❁

قال الفتى المرموق : " إن الإنجليز همُ ، همُ .. أعداؤنا ! أصل البلية هم ، فكيف خلاصنا منهم ، وكيف نجاؤنا ! بالأمس قد وثبوا علينا، واضعين السيف في أجدادنا ومضي عليهم نصف قرن أو يزيد ..وجيشهم ببلادنا[1] صادوا الحمام بدنشواي ، فأزهقوا برصاصهم أرواحنا يا ويلهم يوم الحمامِ ..فإنهم صادوا هناك كفاحنا "! قال الرفاق له : لقد أحسنت في شرح البلية كلها وعقدت عقدة شعبنا محبوكةً .. فانظر لنا في حلّها قال الفتى المرموق : كلا يا رفاق .. فليس ذاك هو الخطر هذا يَسيرٌ غير أن هناك ما يدعو لإمعان النظر .. قالوا له : أهناك أخطر في البليةِ .. من كلامِ قلته؟ أعداؤنا .. أظهرت خافيهم .. وتاريخ الحميء فصلته .. قال الفتي المرموق : يبقى الشعب . يبقي نحن أبناء البلد جيلٌ نُعِدَّ له لينشأ صالحاً ، إن كان جيلٌ قد فسد إني أرى الأعداء أو هي من خيوط العنكبوت ، واهونا لكن أسائل بَعْدُ نفسي .. إن يكن بعث " الإرادة " ممكنا ؟!

❁❁❁

قالوا : وكيف ؟ فقال : تلك هي اللغات بلفظها نتكلمَّ إن أنت خاطبتَ امرءاً يوماً بغير لسانه .. هل يفهم ؟ قال الرفاق له : وأنىّ يفهم الإنسان غير لسانه ؟ قال الفتى المرموق : هذا ما سأشرح ، فاسمعوا لبيانه لغةٌ العدو مع العدو .. هي السلاح .. ولا تفاهم غيرها !

❁❁❁

(١) المفروض أن هذا الحديث جرى فى منقباد عام ١٩٣٨م .

وتجمع الزملاء حول النار .. والأَيْمَانُ فوق المصحف
والدهر يُصغى من وراء الليل ، للقسم الأعزَّ الأشرفِ
نطق الفتى المرموق بالقسم الشريف ورددت أصحابه
لو كان يسمعه الدخيل المستبدُّ .. إذاً لطار صوابه !

❁❁❁

ومضى الفتى المرموق .. من هو يا تُرَى ذاك الفتى المرموق!
أنظر إليه وقد مضي .. فانشق في قلب الغيوب طريق
وبداله ظلُّ .. على جبل الشريف .. كما ردٍ قَهَرَ العدا
يمضي ، فيمضي ظله .. من حوله .. متطاولاً ، متزايدا ..
لو كان يبصره هناك الإنجليز .. وظله يتزايدُ ..
لأستيقنوا أن الأشمّ الصلد .. أمسي تحتهم .. يتمايد !

ولا ريب أن هذا الجزء من الملحمة بهذا السياق القصصي الذي وضعه فيه الشاعر أتى أقوى تأثيراً وأعمق دلالة على موضوعه مما لو صيغ في سياق آخر وصفي أو تقريري .

ونلحظ أن الشاعر استخدم أسلوب الحوار كجزء مهم من الأسلوب التعبيري في القصة ، بالإضافة إلى كونه تلويناً فنياً جمالياً مغايراً للأسلوب السردي الحكائي في السياق الشعري، وكثيراً ما يكون الحوار السلس المتقن مصدراً من أهم مصادر المتعة في القصة ، وبواسطته تتصل شخصيات القصة بعضها بالبعض الآخر اتصالاً صريحاً مباشراً ، والحوار المعبر الرشيق سبب من أسباب حيوية السرد وتدفقه[1] فالحوار في العمل الأدبي يضطلع بمهام متعددة أهمها :

١ – الاشتراك في رسم الشخصيات وإبراز أعماقها الدفينة وأحاسيسها الكامنة .

٢ – خلق التلاحم والاندماج بين الشخصيات .

(١) انظر / فن القصة / د / محمد يوسف نجم /١١٧ –١١٨ .

٣ – خلق التفاعل بين الشخصيات والأحداث .
٤ – تطوير الأحداث وإنماؤها وصولاً إلى النهاية أو الحل .
٥ – إعطاء الأسلوب تنويعاً وتلويناً يبعث الإثارة والتشويق والمتعة في نفس المتلقي .

وإذا كان الصراع هو الجانب المعنوي الرئيسي في المسرحية فإن الحوار هو أداة الأداء التعبيري الوحيدة في المسرحية ، ومن ثم فهو يقوم بالأدوار السابقة على نحو أوفى وأعمق وأشمل من قيامه بها في القصة . على أن القصة يمكن أن تخلو تماماً من الحوار،أما المسرحية فلا يمكن تصور وجودها بغير حوار[١]

وكان عامر بحيري من الشعراء الذين استعانوا بالحوار في شعرهم . خاصة الشعر المسرحي .

ومن أرقى النماذج الحوارية ما جاء في مقدمة الفصل الأول من مسرحية "معركة رشيد " [٢]يصف ما حدث لرشيد وما دور أبنائها ، وإن أخفى الشاعر أسماء الشخصيات التي يدور بينها الحوار .

الأول :

تـــــداعت رشـــــيد لأبنائهـــــا ودوّى النفيـــــــــر بأرجائهـــــــا

الثاني :

وشـــــبت مراجـــــل ثوارهـــــا لتلقـــــي بكـــــامن بغضـــــائها

الثالث :

مراجـــل تشـــوي جلـــود العـــدوّ وتحرمـــه العـــذب مـــن مائهـــا

الرابع :

أيشـــرب مـــن مائهـــا الإنجليـــز ؟ أخـــي شـــربوا ســـمَّ ســـودائها !

الأول :

---

(١) انظر /التراث الإنساني في شعر أمل دنقل / د/ جابر قميحة /١٨٤ .
(٢) الديوان /٢/٢١٣ .

هـي الحـرب قـد وقعـت يـا رفـاق ولقيـــا الجيـــوش بأعـــدائها

ولابـد فـي الحـرب مـن نجـدةٍ تشـــق الفضـــاء بضوضـــائها

فـأين المماليـك ترمـي الـدخيل بفارســـــــها وبعـــــــدَّائها؟

الثاني :

هـــم الـــدخلاء كأصـــحابهم فخـــل الـــبلاد لبلوائهـــا

وأقســـم لـــن تســـتقل الـــبلاد بغيـــر ســـواعد أبنائهـــا !

الأول : **تطوَّع أفرادنا للعمل .**

الثاني : **وقائدنا من ؟**

الأول : **مرادُ البَطَلْ**

الثالث :

مـــراد غـــدا قائـــد الحاميـــه يـــدير القتـــال مـــن الطابيـــه

ونحـــن نقـــيم هنـــا فـــي الخيـــام علـــى هـــذه الربـــوة العاليـــة

الأول :

لديـــــه جيـــــوش نظاميـــــةٌ وتلـــــك مدافعـــــه باديـــــه

علـــى ضـــفة النيـــل إن أطلقـــت تميـــد لهـــا الضـــفة الثانيـــه

الرابع :

نعـــم قـــد صـــدقت ولكننـــا هنـــا الشـــعب والقـــوة العاتيـــه

وفـــي يـــدنا مجريـــات الأمـــور ومـــن يـــدنا الضـــربة القاضـــيه

فإمـــا الصـــعود لأعلـــى الســـماء وإمـــا الســـقوط إلـــى الهاويـــه

ألســـــنا هنـــــا الشـــــعب ؟

الثالث : **هذا صحيح**
الرابع : **وجيش التطُّوع في الناحيه ؟**
الثالث : **نعم**
الثاني :
نحـــن نـــدفع عـــن أرضـــنا لتحقيـــق آمالنـــا الغاليـــه

وإيماننـــا يصـــنع المعجـــزات ويقضـــي علـــى الظلـــم والطاغيـــه

وهي صورة تراثية ولكنها "خالدة " تعيش كل عصر ، بل ربما كان إيحاؤها العصري ودلالتها الحاضرة أقوى بكثير من بُعدها " التراثي " .

ثالثاً : **الموسيقا** :

يتميز شعر عامر بحيري بصفة عامة بتيار التجديد الموسيقي فقد جدد في الوزن [1] ، وجدد في الروى والقافية ، وظهر هذا بوضوح في قصائده وملاحمه ومسرحياته .

ففي ملحمة " الجلاء " نجده نظمها على بحر خماسي التفعيلات من الكامل ، وهو من أسهل البحور نظماً وأقدرها على استيعاب الموضوعات المتصلة ، وأسماء الأشخاص والأماكن ، والقافية تتغير فيها أصلاً كل بيتين ، وأحياناً تزيد إلى ثلاثة أبيات ، وأحياناً تسترسل إلى أكثر من ذلك ما شاء لها من الاسترسال .

ومن أهم مظاهر التجديد الموسيقي عند عامر بحيري ما يسمى " بالتدوير " وهو يعني " إطلاق التفعيلة الشعرية على رسلها ، وبكامل حريتها وتدفقها الحر الطليق بدون أي عائق " .

وبعض القصائد المدورة قد تطول فتصبح في شكل بيت واحد متصل لا ينتهي عروضيا إلا مع نهاية القصيدة ، ولا يشتمل على أية وقفات عروضية يقف عندها القارئ [2] .

---

(١) راجع مقدمة البحث /٣ وما بعدها .

(٢) راجع / عن بناء القصيدة العربية الحديثة / علي عشري زايد /١٩٣ .

ومن القصائد التي ظهر فيها التدوير عند شاعرنا قصيدة " صبراً .. وشاتيلا " وفيها يقول : (١)

يا أيها العرب الكرام .. توحّدوا
عودوا إلى شرف العروبة .. فاصمدوا ، وتجلدوا
لا تعتدوا ..
فإذا اعتدى أحد عليكم .. دونما ذنب جنيتم .. فاعتدوا ..
" بيروت " صامدة .. فلا تترددوا ..
الخ ...

ويرى شاعرنا أن الإيقاع الموسيقي عنصر مهم جداً من عناصر القصيدة ؛ لذا تنساب في شعره ، وخاصة تراثياته ، قواف داخلية متعددة ، تعتمد على ما يشبه حسن التقسيم ، فتحقق مع جرس الكلمات ذاتها الجو النفسي الذي حرص الشاعر على خلقه وهيمنته على جو قصيدته ومنها قوله في ملحمة " أمير الأنبياء " (٢)

وعـاد مُحَّمـد .. فـي العائـدينا وعـزَّ بـه لـواءُ المُسْـلمينا

فجـاء المشـعر الأسـنى بليـلٍ وسـار إلـى منـى فـي المُحْرمينـا

وحـلّ البيـت مسـتلماً مفيضـاً ومـرَّ بزمـزم .. فـي الوافـدينا

وعـاد المسـلمون حمـوع خيـرٍ مـن الحـج الكبيـر مهلَّلينـا

فهـذي حجـةُ الإسـلام كانـت وداعـاً أو هـدى للمهتـدينا !

فتأتي المجانسة بين الكلمات والمزاوجة بين الحروف والتنسيق بين الحركات والسكنات مع الحالة الشعورية للشاعر بالموسيقى الداخلية " الخفية " التي تعني توقيعات نفسية تنفذ إلى صميم المتلقي لتهز أعماقه في هدوء ورفق .

رابعاً : المفارقة التصويرية :

(١) الديوان /٢ / ٣٧٤ .
(٢) الديوان / ٢ / ٤٨، ٤٩ .

أسلوب المفارقة يعتمد بصفة أساسية على عرض التضاد أو المتقابلات، فهو يقتضي وجود " طرفين " تربط بينهما علاقة " الضدية " ، وقد تكون المفارقة بين لفظين كالأبيض والأسود ، أو بين صورتين أو لوحتين متقابلتين ومن الصعوبة أن نجد قصيدة ، أو أبيات لعامر بحيري لا تعتمد هذا العنصر كأساس في تكوينها البلاغي .

كالأبيض والأسود ، والحر والعبد ، والصباح والمساء الخ لذا فلن أطيل الحديث عنها .

لكن الذي استوقفني في تراثيات عامر بحيري هي المفارقة التصويرية بين صورتين ممتدتين متعددتي العناصر والملامح في تركيبة درامية متصاعدة . وقد تكون الصورتان كلها تراثية ، وقد يكون أحد الطرفين عصرياً .

فمن الأول : ما جاء في مسرحية " خالد بن الوليد " حين وضع عامر أمامنا صورتين متناقضتين لخالد بن الوليد حين وفاته ، وهو يموت بلا صديق ولا مال ولا نشب وصورته لو كان مات في أمة أخرى لكانت جازته على ما قدم لها من بطولات وانتصارات وغنائم ولكنه عربي مسلم فضل أن يكون درساً لأمته ، وسيرة لأبنائها .

يقول على لسان متمم : (١)

متمم :

لو كان من أمة أخرى لسار بها عليه أوسمة الياقوت والذهب

يختال في الماس والديباج منتفخا أوداجه ويجر الذيل من عجب

لكنه عربي مسلمٌ فتحت بسيفه عاصيات المعقل الأشب

يموت كالليث في المنفى بلا ولا صديقٍ ولا مالٍ ولا نشبٍ

فليكرم الله ذكراه ويجعلها درساً لأمته في مُقبْلِ الحقب

(١) الديوان / ٢ / ١٥٢، ١٥٣ .

ولَيرو سيرته التاريخ لو وجدت فيه كسيرة هذا الفاتح العربي

فالمقابلة بين حالتين لشخصية واحدة ، الأولى: لو طلب هذا الفارس الدنيا ومباهجها وزينتها لكانت بين يديه ، والثانية : طمعه في الآخرة ورضوان الله ورحمته وقد حرص الشاعر على رسم تفصيل الحالتين ليعطي المفارقة قوة الإقناع وقوة الإيحاء بالدلالات المعاصرة التي يستطيع أن يدركها المتلقي في ظل الواقع المعاصر .

– وقد يكون أحد الطرفين تراثياً والثاني معاصراً ، ويكثر هذا النوع حين يتحدث شاعرنا عن تاريخنا العربي والإسلامي وأمجادنا وما آلت إليه أمتنا من ضعف وتخاذل وخسران يقول في قصيدة " في عيد الوحدة " :[1]

وميَّز أَهلها[2] كرمٌ وفضلٌ فكانوا قدوة الدنيا خصالاً

لهم فتح الفتوح بكل أَرض إذا السيف اكتفى شهروا المقالا

وما أَمجادهم إلاَّ كتابٌ تكامل عزَّةً وسما جلالا !

فهذه هي صورة الأمة العربية والإسلامية في ماضيها أمة أصيلة ، قدوة ، سادت العالم بعقيدة صحيحة .

أما اليوم فقد ضاعت وراء القيادات الفاسدة والخائنة وأصبحت أمة ذليلة مهينة يستهان بها يقول :

إلامَ النوم والأحداث تترى إلام الصبُر والبلوى توالى ؟

فهذي غزَّةُ انبثقت جراحاً ولم نضمر لها إلا المطالا

رأَيت اللاجئين بها عراةً وما اشتملوا سوى البرد اسْتمالا

يراقبهم ضميرٌ عالميٌّ يودُّ لهم من الرفق اغتيالا

(١) الديوان / ١/ ٢١٣ .

(٢) الضمير يعود على اللغة العربية .

نتائج البحث

١ – يجب أن تكون العودة إلى التراث عودة واعية ، معتمدة على الخبرات والتجارب التي نعاصرها ونحيا بها .

٢ – اتجه عامر بحيرى إلى استلهام التراث الإسلامي ؛ لأنه ليس تراثاً جامداً ، ولكنه تراث متفاعل لم يتوقف لحظة عن الحركة ، ولم ينفصل تاريخياً عن مراحله الزمنية .

٣ – كان الاتجاه نحو الماضي نوعاً من مقاومة الإحساس بالهزيمة والضعف والإستعلاء على الحاضر المرير باستدعاء صور حضارة الإسلام ومجدها وصناعها من التاريخ رفضاً للواقع الأليم ،وتمرداً عليه ، وحفزاً للهمم ، وشحذاً للعزائم ، واستفاراً للطاقات الكامنة في النفوس .

❁❁❁

الخاتمة

أستطيع بعد هذا التطواف مع الشاعر عامر بحيرى في شعره المستوحى من التراث – أن أؤكد أن عودة هذا الشاعر إلى التراث كانت عودة واعية؛ إذ جاءت نابعة وممتزجة من الأحداث والوقائع التي نعايشها ونحس أثقالها وأعباءها ، وكانت عودته للتراث الإسلامي على وجه الخصوص لأنه تراث حي نابض لم يتوقف عن العطاء ولم ينفصل عن مراحل تاريخنا الممتد ، ولعل القارئ يلحظ أن هذا التوجه لدى شاعرنا – ولدى كثيرين غيره – يمثل لونا من المقاومة وعدم الاستسلام للشعور بالهزيمة والضعف كما يمثل رغبة قوية من شعرائنا في العصر الحديث لتجاوز مرارة الحاضر من خلال استدعاء التراث المجيد والصور الوضيئة لأمجاد أسلافنا الماضين ، وفي ذلك كله شحذ للهمم وحشد للعزائم ، واستنفار للطاقات .

ولا جدال في أن استلهام التراث الذي وظفه كثير من شعرائنا الواعدين في العصر الحديث كان خير إضاءة لماضينا العريق ، وبعث الآمال في النفوس ، وزرع الثقة في الأجيال الحاضرة لتلحق بركب التقدم وتنفض عنها غبار المساحيق الملونة والأقنعة الزائفة .

والله من وراء القصد .

❁❁❁

المصـــادر والمراجع

- **القرآن الكريم**

١ – الاتجاه الإسلامي في الشعر المصري المحافظ من ١٨٨٢ إلى ١٩١٩م .د. نبيل سليمان طبوشه ط / الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠م .

٢ – الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر . د. محمد محمد حسين ط / مؤسسة الرسالة – بيروت . ط / السادسة ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣ م .

٣ – الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق . د . على على صبح . ط/ الجرسيي للطباعة ١٤٠٨هـ – ١٩٨٧ م .

٤ – الأدب العربي الحديث ومدارسه د . محمد عبد المنعم خفاجي ط / مكتبة الكليات الأزهرية ، بدون .

٥ – الأدب وفنونه . د. محمد مندور . ط/ مكتبة نهضة مصر . ١٩٦١م .

٦ – استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر د . على عشري زايد ، ط / دار غريب / ٢٠٠٦ .

٧ – الإسلام في الأدب العربي المعاصر د . إبراهيم عوضين ط / مطبعة السعادة القاهرة ١٤٠٨هـ – ١٩٨٧م .

٨ – الإسلامية والمذاهب الأدبية د . نجيب الكيلاني ط / مؤسسة الرسالة . بدون .

٩ – الأسلوب . أحمد الشايب ط / الاعتماد بمصر الثانية بدون .

١٠ – أسلوب المحاورة في القرآن الكريم د . عبد الحليم حفني ط / الهيئة المصرية العامة للكتب . الثانية ١٩٨٥ م .

١١ – الأعلام . خير الدين الزر كلى ط / دار العلم للملايين – بيروت . الخامسة ١٩٨٠ م .

١٢ – الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني . شرح / أ. عبد أعلى مهنا ط / دار الكتب العلمية – بيروت – الثانية – ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢ م .

١٣ – آفاق الأدب الإسلامي / د/ نجيب الكيلانى / ط / مؤسسة الرسالة/١٩٨٥ م .

١٤ – التراث الإنساني في شعر أمل ونقل / د/ جابر قميحة ط / هجر/ ط الأولى ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م .

١٥ – تراثنا بين ماضي وحاضر / د/ عائشة عبد الرحمن ط / دار المعارف / ١٩٧٠ م .
١٦ – دراسة الأدب العربي د / مصطفي ناصف . ط / الدارالقومية للطباعة والنشر / بدون .
١٧ – ديوان الشعر في المعركة – محمود حسن إسماعيل / ط / دار المعارف/ ١٩٥٧ م .
١٨ – ديوان عامر بحيرى / ط / الهيئة المصرية العامة للكتاب . ١٩٨٢ م / الجزء الأول ، ١٩٨٧ م الجزء الثاني .
١٩ – دول العرب وعظماء الإسلام / أحمد شوقي / ط / دار الكتاب العربي / ١٩٧٠ م .
٢٠ – الشعر العربي المعاصر قضاياه وظاهر الفنية والمعنوية د / عز الدين إسماعيل ط / دار الفكر العربي / الثالثة / بدون .
٢١ – عبقرية محمد – عليه الصلاة والسلام – عباس العقاد بدون .
٢٢ – عن بناء القصيدة العربية الحديثة . د. على عشري زايد . ط / دار مرجان . الأولى . ١٩٧٨ م .
٢٣ – عيار الشعر لا بن طباطبا – تحقيق / محمد زغلول سلام ط / المكتبة التجارية الكبرى – القاهرة ١٩٦٥ م .
٢٤ – قصص الأنبياء / للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير ط / دار التراث العربي للطباعة والنشر – القاهرة الأولى ١٤٠١هـ – ١٩٨١ م .
٢٥ – القصص القرآني بين المفسرين والقصاص قديماً وحديثاً / د . طه عبد الفتاح مقلد . بدون .
٢٦ – قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر / د . عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) ط / دار المعارف / ١٩٧٠ م .
٢٧ – مائة نتيجة لحرب السادس من اكتوبر – محمود محمد أحمد المصري – ط / مركز النيل للإعلام ط / الأولى / ١٩٧٩ م .
٢٨ – منهج الفن الإسلامي / محمد قطب / ط / دار الشروق ط / السادسة / ١٩٨٣ م .
٢٩ – نظرات في القرآن / محمد الغزالي / ط / دار الكتب الحديثة / الثانية ١٩٦١ م .